جامعة بجاية
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

عنوان المذكرة:

الصراع الحضاري

في رواية " الصدمة" لِياسمينة خضرا

مذكرة مقدّمة لاستكمال شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب جزائري

إعداد الطالبة :

- *محمدي سكينة*

إشراف الأستاذ :

- بطاطاش بوعلام

السنة الجامعية: 2015/2014

إهداء

إلى أول من علمني التعبير والأحلام إلى المعلم حامي أعمر رحمه الله.

إلى مرشدي وقدوتي ومثلي الأعلى أبي الحبيب.

إلى أمي.

إلى الأستاذ بطاطاش الذي لم يبخل علي بنصائحه و وقته.

إلى إخوتي يوسف، ياسين، يونس، سيدعلي و نور الدين.

إلى الصديقات: صونية، نادو، حسينة، نادية، ليلى، زوليخة، سعاد، لامية، سارة، رزيقة نرجس، ليندة، حنان، رشا ...

إلى كل من ساعدني في هذا العمل: سفيان، فريد، سمير، مصطفي، سفيان.

إلى كل عائلتي محمدي و قاضي.

الفهرس

الفهرس:

- المقدمة.....01

- المدخل (الحضارة).....04

- المبحث الأول:

الايديولوجيا.....14

- المبحث الثاني:

الهوية.....31

- المبحث الثالث:

الوطن.....41

- المبحث الرابع:

القومية.....50

- المبحث الخامس:

الانسانية.....61

- الخاتمة.....70

- قائمة المصادر والمراجع.....71

مقدمة

يبحث العمل في تجليات الصراع الحضاري في الرواية "الصدمة" والتي تقارب القضية الفلسطينية، والتطورات الأخيرة على عدة مستويات:

- هل الاندماج ممكن في ظل الاختلافات العقائدية؟

- دور التعصب والصراعات الإيديولوجية والقومية والهوياتية في إعاقة تحقيق التعايش بين الشعبين الفلسطيني والإسرائيلي.

- هل الانفتاح والحياد وتجاهل الانتماء كاف؟

- ما هو دافع الانتحاريين إلى انتهاج هذا السبيل؟ أهو الخيار الوحيد؟ هل هم مجبرين أم مخيرين؟

أهمية البحث في نظرنا تتمثل في التركيز على العمل الروائي وما ينطوي عليه دون الخوض في توجهات الكاتب و انتماءاته، لأن الأخيرة كانت تقريبا جل ما ركز عليه النقاد والدارسين العرب، نحاول دراسة العمل من وجهة نظر عربية، وإزالة الالتباس عن الموضوع الشديد التعقيد والحساسية والغموض.

وقد تم اعتمادنا على المنهج البنيوي، واستعنّا بالتحليل النفسي والاجتماعي نظرا لتعقيد الأحداث، فتحليلها يتطلب العودة لأغلب هذه المناهج، حاولنا تحري الموضوعية الممكنة في التحليل والاستنتاج لعدم المس بجوهر العمل الروائي وتحييده عن المسار الذي رسمه صاحبه.

ولتحقيق ذلك اعتمدنا على مدخل نشرح فيه مختلف المعاني المقدمة للحضارة للتوضيح انها تشمل فعلا للجوانب التي قررنا التفصيل فيها- (الايديولوجية، الهوية، الوطن، القومية، الانسانية.)- وذلك بجانب نظري لشرح المصطلحات والإحاطة

بمختلف مجالات استعمالها، ثم تطبيقي نبين فيه بشواهد من الرواية مدى تجسيد الأحداث والشخصيات للصراع المدروس.

من بين أهم المراجع التي تم الاعتماد عليها لتوضيح حقيقة الصراع: كتاب صامويل هنتنجتون "صدام الحضارات" و"أزمة الهويات" لكلود دوبار و"الايديولوجيا واليوتوبيا" لكارل منهايم.

في مسار بحثنا هذا كان الوقت هو العائق الأول ما حال بيننا وبين الاطلاع على جل ما له علاقة بالموضوع.

مع هذا فان انجاز هذا العمل ما كان ليتم لولا تحفيزات العائلة، وتوجيهات وصبر الأستاذ المشرف.

مدخل :

(الحضارة)

يعبر الصراع عن موقف يفترض تناقض المصالح أو القيم بين طرفين أو أكثر كما يشترك في إدراك الأطراف لذلك، إضافة إلى رغبتها في تبني موقف لا يتفق بالضرورة مع رغبات الطرف أو الأطراف الأخرى، حيث يتصادم هذه المواقف، ويتم الصراع على عدة مستويات: بين الأفراد، بين الجماعات، وبين الدول، وحين يتم على مستوى الأمم أو الكيانات التي تمثلها يمكننا عندها الحديث عن صراع حضاري.

وتعريفات الحضارة تعدَّد تبعا للمدارس الفكرية التي تصدر عنها، فهي عموما تعبير عن منظومة العقائد والقيم والمبادئ، وجماع النشاط البشري في شتّى حقول الفكر والعلوم والآداب والفنون جميعا، وما يتولّد عن ذلك من ميول ومشارب وأذواق تصوغ نمط السلوك، وأسلوب الحياة، ومنهج للفكر.

وقد تطور مفهوم الحضارة من عصر لآخر، فحسب ابن خلدون **"الحضارة هي تفنّن في التّرف[...] فصار طور الحضارة في المُلك يتبع طور البداوة ضرورة لضرورة تبعيَّة الرّفه للمُلك"**[1] هذا التعريف مُهملا للجانب اللاّمادي للحضارة؛ فهي أيضا **"نضام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاجتماعيّة...النظم السياسيّة...التقاليد الخلقيّة...متابعة العلوم والفنون، وهي (الحضارة) تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق."**[2] ذلك أنها مرتبطة بالاستقرار بل **"الاستقرار نفسه يعني ميلاد الحضارة."**[3]

وتعريفها في موسوعة السياسة غير بعيد عن السالف حيث يعد الكلمة **"التحضّر والتمدّن (من الحضر والمدينة) وهي مجموعة من المنجزات الفكريّة والاجتماعية والأخلاقية والصناعية التي يحققها مجتمع معيّن في مسيرته لتحقيق الرقيّ والتقدّم يركّز البعض في استخدام المصطلح على الناحية الثقافية بينما يستخدمها البعض**

---

1)عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة، ص548.
2) و. ديورنت، قصة الحضارة، تر: محمد بردان، المنظمة العربية للتربية و الثقافة والعلوم، تونس، ج1، ص3.
3)صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات، تر: طلعت الشايب، سطور القاهرة، ط2، 1999، ص 45.

الأخر على أساس أنها سيادة العقل في المجتمع. أما استخدامها المعاصر فقد شدّد على ما تضمنه من التطور العلمي والتكنولوجي وما يفرزه هذا التقدّم من انجازات في الميادين الأخرى من الحياة."[1] يمكن تفسير طغيان الجانب المادي على التعريف المعاصر إلى كون العالم حاليا مُنقاد وراء المُنجازات العلمية والتكنولوجية مُبجِّلا إياها على حساب الجانب المعنوي في أغلب مجالات الحياة.

وقد جمع "جبور عبد النور" بين عدّة تعريفات في معجمه الأدبي، قسَّمها إلى ثلاث الأولى خاصة بالشعوب والتي تشير إلى تحرّرها من البربريّة، وتقدّمها في مختلف المجالات منها الاجتماعية والسياسية، والثانية خاصة بالمجتمع والتي تحوي خصائصه الاجتماعية والدينية والخُلقية والتقنية والعلمية والفنية الشائعة المُتناقلة جيلا بعد جيل.

ليجمع في الأخير بين التعريف التاريخي للمصطلح والحديث **"ما يزال مفهوم الحضارة شاملا لمعنيين اثنين الأول نسبي معياري، والثاني عام وشامل. وهو ينطوي في الوقت نفسه على رقيّ تقني يصطنعه الإنسان للسيطرة على الطبيعة، وعلى رقيّ اجتماعي وخُلقي، أي على تحرّر الأفراد والشعوب، و وجود مجتمع بلا حروب ولا طبقات، وخاصة على شيوع العدالة الشاملة، فلا تكون هناك فِآت مُتخمة، وفِآت جائعة، ودول مُسيطِرة وأخرى مُستضعَفة. وتَقدُّم الحضارة لا يعني طُغيان ثقافة غربية على شرقية أو شماليّة على جنوبيّة، بل يعني أساسا، تبادلا أدبيا، وفكريا، وعلميا، وفنيا بين جميع الأطراف بحيث تزدهر الفردية الثقافية وتنضج ثمارها."**[2] وهو بهذا يلخص مفهوم "التحضّر" في معناه المثالي المجرد.

.

1)عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ص549.
2)جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984، ص94.

قد يكون التعريف الأقرب إلى الراهن؛ ذاك الذي نجده في معجم "مفاتيح اصطلاحية جديدة" فبعد تعريف كلاسيكي، يتم تبرير الاتساع الأوروبي بوصفه مشروع حضارة " **تبارى المطالِبون بالمصطلح وبتراث صنع العالم الذي يتضمّنه. توضّح هذه الخلافات أن الحضارة تكتسب معانيها من خلال عملية عبور كوني وعملية ترجمة وصراع عابرة للثقافة، وتقتضي متابعة "النظرية المتنقّلة" للحضارة الانتقال داخل وخارج بعض البيئات اللغوية وأنماط السياسة الثقافية."**[1] هي إذن مزيج من الثقافة واللغة والقومية، تتميّز بقدرتها على التوسّع والانتشار، لكنها أيضا معرّضة للاِضمحلال والزوال.

أما "هنتنجتون" في كتابه "صدام الحضارات" - الذي أثار الكثير من الجدل- فيربط الحضارة بالدين قبل كل شيء ثم العامل الثقافي بنسبة أقل **"الحضارات الرئيسية في التاريخ الإنساني كانت دائما متوحّدة ومتطابقة مع ديانات العالم الكبرى وبدرجة كبيرة والناس المشتركون في العرق واللغة ويختلفون في الدين قد يذبحون بعضهم البعض[...] هناك تشابه كبير بين تقسيم الناس إلى حضارات طبقا للمواصفات الثقافية، وتقسيمهم إلى أجناس طبقا لمواصفات جسمانية، إلا أن الحضارة والجنس ليسا متماثلين. الناس المُنتمين لأجناس مختلفة قد تُوحِّدهم الحضارة."**[2] وهو ما تجسّده فعلا أغلب الصراعات الراهنة وإن كان ظاهرها أحيانا سياسي، أو اقتصادي.

1) طبينيت، ل. غروسبيرغ، م. موريس، مفاتيح اصطلاحية جديدة، تر: سعيد الغانمي، المنظمة العالمية للترجمة، ص 298.
2)صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات، مرجع سبق ذكره، ص70

وحسب التمييزات التي توصّل إليها تقريبا كل من تناول الموضوع؛ هناك عدة حضارات على مرّ العصور منها المُندثرة على غرار الفينيقية، الرومانية والمصرية...الخ ومنها التي مازالت قائمة لكن على مستويات متباينة بين الحضور والغياب كالصينية، الإسلامية والغربية...الخ.

يبقى هناك جانب يفرض نفسه على الدارس؛ وهو إشكالية "العلاقة بين الحضارات" أهي «حوار أم صراع»؟ وهي العلاقة التي لا يمكن تحديدها دون الرجوع إلى عدة عوامل أخرى مثل: العلاقة بين الثقافات، بين الهويات، العلاقة بين القيم بين النماذج المعرفية، العلاقة بين الأديان...الخ، ومن الواضح هنا أن الإسلام ورؤى المسلمين تقع في صُلب المعالجات المُختلفة لهذه المناطق. وإن كانت كل الحضارات الأخرى مَعنيّة أو متفاعلة لكن بِنِسَبٍ متفاوتة.

فكما أرّخ له العديد من الباحثين يعود تجدّد الصراع بين الحضارات إلى نهاية الحرب الباردة، بعد زوال كل دواعي التحالف أو الحياد فَ **"في الحرب الباردة كانت علاقة الدول بالقوتين العظيمتين على النحو التالي: إما حلفاء، أو توابع، أو عملاء، أو محايدين، أو غير منحازين. في عالم ما بعد الحرب الباردة: الدول في علاقاتها بالحضارات: إما دول أعضاء، أو دول مركز، أو دول وحيدة، أو دول مصدوعة، أو دول ممزقة. والحضارات، مثل القبائل والأمم لها بنية سياسية. الدول العضو هي دولة متوحدة ثقافيا مع إحدى الحضارات"**[1] فقد ظهرت إذن تكتلات أخرى مبنية على الحضارات، والتي تتصارع حسب هذا المخطط **لصامويل هنتنجتون**[2].

1)صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات، ص70.
2)المرجع نفسه، ص 397.

(شكل رقم ٩ - ١)

السياسة الكونية للحضارات : الانحيازات الناشئة

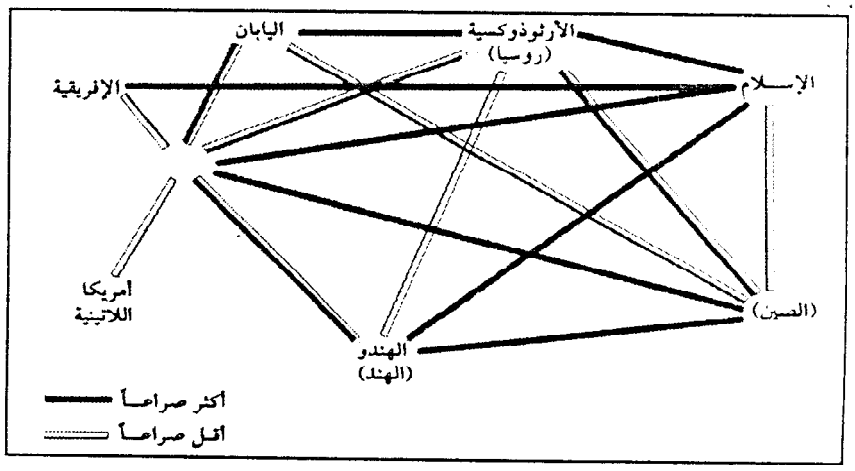

بالاستعانة بهذا المخطط يتّضح لنا أن هناك تقريبا صراعات بين كل الحضارات مع اختلاف في الشدّة، كما يُصرّح به صاحب الكتاب: **" السِّياسة الكونية يُعاد تشكيلها الآن على امتداد الخطوط الثقافية، مدفوعة بالتَّحديث، الشعوب ذات الثقافات المتشابهة تتقارب والشعوب والدول ذات الثقافات المختلفة تتباعد، الإنحيازات التي تعتمد على الايديولوجيا والعلاقات مع القوى الكبرى تفسح الطريق لتلك التي تعتمد على الثقافة والحضارة، الحدود السياسية يُعاد رسمها لكي تتوافق مع الحدود الثقافية: العرقية والدينية والحضارية. المجتمعات الثقافية تحل محل تكتّلات الحرب الباردة، وخطوط التقسيم بين الحضارات تصبح هي خطوط الصراع الرئيسية في السّياسة العالميّة."**[1].

وتعد قضية «الإسلام والغرب» أو الحضارة الإسلامية ونظيرتها الغربية قضيّة أساسيّة من قضايا العلاقات الدوليّة الراهنة، هناك الرؤية التي تتمحور حول الترحيب الشائع بوصف العلاقات الراهنة بين الحضارات على أنها «حوار» أو أنها يجب أن تتجه إلى الحوار، وهي النظرة التي يُعبِّر عنها و يتبنَّاها المعتدلين من الجانبين، أو أنها تُعبّر عن آمال البعض وأحلام الآخر؛ ذلك أنها أبعد ما تكون عن الواقع، لدرجة أن أغلب من يتناول هذه الإشكالية من هذا المنظور يضطر لأن يُسبق عنوانه "حوار الحضارات" بكلمة "أزمة".

هناك أيضا من بلغ درجة التحذير من مخاطر حالة الصدام الحالية، ما دفعهم للقول أن الجنس البشري كله مهدد، داعين إلى تجنُّب التعصّب و**"تغيير للعقليات وإسقاط فعلي للحواجز الثقافية بين الشعوب والأفراد يفترض الكثير من الوقت والمثابرة وإبداع آليات جديدة لإرساء أخلاقية عالمية للتواصل بين مختلف الثقافات والديانات. وفي عصرنا لم يعد لنا خيار إلا بين الصراع الشامل المتبادل أو الحوار وإدّعاء ثقافة ما اِمتلاك الحقيقة المطلقة هو بمثابة أسوء الأخطار"**[2] ومن الجانب

---

1) المرجع السابق، ص 203.

2)Garaudy (roger), intégrisme, Belffond, Paris, 1990, p189 .

الآخر تنبّأ العديد من المفكرين بقدوم هذا الصراع ففي سنة 1990 قام "برنارد لويس" وهو مفكر غربي بارز مُهتم بالإسلام، بتحليل "جذور الغضب الإسلامي" واستنتج أنه **"يجب أن يكون واضحا الآن أنّنا نواجه حالة وحركة تتخطّى بكثير مستوى القضايا و السّياسات والحكومات التي تُتابعها، وهذا ليس أقل من صدام حضارات، والذي ربما كان غير منطقي ولكنه بالتأكيد رد فعل تاريخي لتنافس قديم ضد تراثنا اليهودي المسيحي وحاضرنا العلماني[...]"**[1] فالصراع بين الحضارتين العربية الإسلامية والغربية المسيحية ليس ابن اليوم، إنما تمتد جذوره عبر تاريخ طويل، وكذلك صرّح مثقفين عرب منهم **"الكاتب الصحفي (محمد سيد احمد) الذي أكد عام 1994 أن: هناك علامات لا تُخطئها العين على صدام يتنامى بين الفكر اليهودي المسيحي الغربي وحركة الإحياء الإسلامي، والذي يمتد الآن من الأطلنطي غربا إلى الصين شرقا"**[2]

فالواقع صراع ظاهري يتجسد في الحروب و الاغتيالات و اغتصاب أراضي وانتهاك حقوق، وآخر باطني يتمثل في التعصب وعدم تقبل الآخر أو التفريط في مميّزات الحضارة الخاصة بأحد الأطراف، يذهب صاحب كتاب "صدام الحضارات" إلى أن الصراع الحضاري حتمي ولا مناص منه **"الحضارات هي القبائل الإنسانية النهائية وصدام الحضارات هو صراع قبلي على نطاق كوني."**[3]

وأسباب الصراعات تتباين مع تباين المصالح واِختلاف الثقافات والتعصُّب لها فمثلا **"الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية كل منهما ينتظم تقاليد ثقافية عظيمة تختلف جدا عن التي لدى الغرب، وهي في نظرهما أرقى من تقاليد الغرب بمراحل لا محدودة. وقوة وتأكيد كليهما إزاء الغرب تتزايدان، كما يتزايد الصراع ويشتد بين مصالحهما وقِيَمِهما ومصالح وقيم الغرب."**[4]

---

1)صامويل هنتنجتون، صراع الحضارات، ص 344.
2)المرجع نفسه، ص 344.
3)المرجع نفسه، 335.
4)المرجع نفسه، ص 295.

إذا كان التعصّب وعدم التنازل هو ما يمكن أن تُآخذ عليه الحضارة الإسلامية، فإن الغرب مُغالٍ في محاولاته تمرير كل مصالحه في العالم (الإسلامي خصوصا) تحت عدة أغطية تُنسَب لها دائما الشرعية في مظاهر مختلفة؛ كما تنبّأ به هنتنجتون **"من المرجّح أن تنشأ أخطر الصراعات في المستقبل نتيجة تفاعل الغطرسة الغربية والتعصب الإسلامي"**[1]

بالإضافة - حسب هنتنجتون دائما - إلى كون أحد أسباب الصراع هو محاولة إرغام الآخر على تَبَنِّي أو تقبّل حضارة الأقوى والذي يعتبر نفسه دائما على حق **"الصراع بين الدول والجماعات التي تنتمي إلى حضارات مختلفة بمقياس أوسع، هي تلك التي كانت دائما تولّد صراعا بين الجماعات: السّيطرة على الناس، الأرض، الثروة، الموارد، القوة النسبية، أي القدرة على فرض القيم والثقافة والمؤسسات الخاصة على جماعات أخرى مقارنة بقدرة تلك الجماعة على أن تفعل ذلك بك. الصراع بين الجماعات المختلفة قد يتضمن أيضا قضايا ثقافية."**[2] بحيث لا تكتفي هذه الجماعات باعتبار نفسها على حق إنما تفرض بالقوة منطقها على الجماعات الأخرى، ما ينتج تصادما وصراعا.

يبقى التعصب من أقوى الأسباب حيث أطراف الصراع ترفض أي حلٍ وسط ذلك أن **"الاختلافات في المصلحة المادية يمكن أن يتم التفاوض بشأنها وغالبا ما تتم تسويتها عن طريق التفاهم وبأسلوب لا يمكن إتّباعه بالنسبة للقضايا الثقافية[...] نفس الأمر بالنسبة [...] بين اليهود والعرب بخصوص (القدس)، طالما أن المكان له مغزى تاريخي وثقافي وعاطفي عميق لدى كل طرف. إجابات الأسئلة الثقافية من هذا النوع هي إما "لا" أو "نعم" ولا يوجد خيار آخر."**[3]

1)صامويل هنتنجتون، صراع الحضارات، ص 295.
2)المرجع نفسه، 210.
3)المرجع نفسه، 210.

أحيانا لا يكون التعصب لأجل التعصب، بل لأنه الحل الوحيد المتاح، فهو إذن تشبّث كل طرف بمُعتقداته ومصالحه، ما يدفع بكل طرف لتجاوز أساليب الصراع المعقولة، لدرجة بلوغ كوارث أخلاقية في حق الإنسانية، وهو ما سماه "هنتنجتون" بصراعات التقسيم الحضاري "**صراعات للسيطرة على الناس وكثيرا ما تكون القضيّة قضية صراع للسيطرة على أراضٍ. قد يكون هدف أحد المشاركين فيها على الأقل هو انتزاع أرض أو تحريرها من آخرين بطردهم أو قتلهم أو القيام بالعمليتين معا وهو ما يسمى ب "التطهير العرقي" هذه الصراعات غالبا ما تكون عنيفة وفظيعة حيث يشتبك الجانبان في مجازر وعمليات إرهاب واغتصاب وتعذيب. وغالبا ما تكون الأرض المتنازع عليها رمز لهوية وتاريخ طرف من طرفيْ الصراع أو لهما معا، قد تكون أرض مقدسة لهما فيها حقا لا يجوز المساس به.**"[1]

قد لا يكون "هنتنجتون" استبق الأحداث بزمن طويل إلا أنه بكتابه "صدام الحضارات" الذي صدر عام 1996 يُعتبر المنظِّر الأول لهذه الصراعات ومن بين الأوائل المتنبئين بها "**في التسعينات كان كثيرون يرون (حربا حضارية باردة) تنمو مرة أخرى بين الإسلام والغرب. وفي عالم مكون من حضارات، لن تكون تلك هي العلاقة الوحيدة التي توصف بهذا المصطلح. السلام البارد، الحرب الباردة، حرب التجارة، شبه الحرب، السلام القلق، العلاقات المُضطربة، التنافس الحاد، التعايش التنافسي، سباق السلاح.. هذه العبارات كلها هي الوصف الأكثر احتمالا للعلاقات بين الكيانات المنتمية لحضارات مختلفة. الثقة والصداقة ستكون عُملة نادرة.**"[2]

1)صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات، ص 460.
2) المرجع نفسه، ص 335.

وهو ما تجسّد بعد أقل من عشريتين، بل وإذا أخذنا بعين الاعتبار كل الصراعات والتغيرات والكوارث الناتجة عنها طيلة هذه الفترة؛ يمكن القول أن "هنتنجتون" كان رحيما في المصطلحات التي استعملها، فنحن الآن نحتاج إلى أقسى وأبشع من ذلك بكثير لوصف راهِن العلاقات الدولية وما ينجر عنها.

انطلاقا من هنا و اعتمادا على ما سبق، نستخرج: الايديولوجيا و الهوية و الوطن والقومية والإنسانية كأبرز مكونات الحضارة، وكمراكز قاعدية تتجلى فيها الصراعات الجزئية، والتي جمعها يعيدنا إلى الصراع الحضاري في حلقة مغلقة.

المبحث الأول:

الإيديولوجيا

يعود أول استعمال لمصطلح الايديولوجيا للمفكر الفرنسي "أنطوان دي تراسي" - في كتابه "تخطيط العناصر الإيديولوجية" المنشور عام1981- والذي تبناه مجموعة من مفكري التنوير الفرنسيين، حيث أرادوا أن يُطبّقوا المنهج العلمي الجديد في فهم العقل بتقديم أجوبة نفسية عن أسئلة فلسفية. فكانت "الإيديولوجية" أي علم العقل دراسة أصل الأفكار وتطوّرها، أرجع هؤلاء الفلاسفة الأفكار إلى الواقع التجريبي وبتحديد أكثر إلى الإحساسات، داعين إلى إرساء العلوم الثقافية على قواعد منطقية عقلانية، وقد **"اقتبسه نابليون بونابرت، الذي قلب المصطلح على رأسه، واِستعمله لمهاجمة المدافعين عن قيم التنوير (ولاسيما الديمقراطية)"**[1] كانت الايديولوجيا مَعرفة مُجرَّدة، لم تتجذّر في وقائع الحياة الإنسانية والمصلحة الذاتية.

استمرّ هذا الاِستعمال الإزدرائي وتوسع طوال القرن التاسع عشر، حيث يُستعمل من طرف المحافظين، لتسمية أي نظرية أو خطة سياسية ثورية أو متطرفة خاصة حين تكون مُستمدة من النظرية وليس التجربة. ثم أعاد ماركس واِنجلز قلب الاِستعمال النابليوني، حيث اِعتبرا **"أن الأفكار لم تكن سوى تعبير عن العلاقات المادية في الحياة الاجتماعية، العلاقات المادية"مفهومة كأفكار". بحيث هناك نظريتان عن الايديولوجيا متميّزتان في عملهما في الأولى، ربطا الايديولوجيا ربطا مباشرا بعلاقات السلطة المختلّة. وفي الثانية كانت "الايديولوجيا" تصف منظومة المُعتقدات اللاشعورية التي تنتمي إلى أي طبقة أو جماعة اِجتماعية. و يَفترِض كلا الاستعمالين إمكان وجود معرفة أفضل وأكثر عملية."**[2] فبدل نقد الظروف القائمة يجب أن نحلّل كيف تكوّنت بالرجوع إلى التاريخ كتطور واقعي.

دام هذا الانقسام طويلا داخل مفهوم الايديولوجيا - بين تصور ضيّق عن تحديد مباشر لعلاقات السّلطة وتصوّر أوسع منه عن معرفة توجد اِجتماعيا - في صلب النظرية

1)ط. بينيت، ل. غروسبيرغ، م. موريس، مفاتيح اصطلاحية جديدة، مصدر سبق ذكره، ص 133.
2) المرجع نفسه، ص 133.
.

الماركسية والاجتماعية، فعلى سبيل المثال، ميّز كارل منهايم **"بين الاديولوجية السياسية الصريحة، الجزئية، والنظرة إلى العالم لدى مجتمع معين أو جماعة اجتماعية."**[1]

كان انطونيو غرامشي في العقدين الأخيرَين من بين المفكرين الذين حظوا بتأثير مميّز في إعادة صياغة النظريات الأكاديمية عن الايديولوجيا إذ أكد **"تعقيد العلاقات التي تحدد الواقع الإنساني في أي زمان أو مكان مُعيَّنيْن؛ وقد رفض اِفتراض القائل أن مثل هذه العلاقات كانت نتيجة ضروريّة لقوى متعالية (مثل الاقتصاد)."**[2] وعارَض النزوع إلى فرضيّة أن الطبقة و/أو العلاقة الاِجتماعية كانت توفّر بالضّرورة الحقيقة عن كل شيء. بل يرى**"أن الواقع الإنساني كان نتاج عمل في إنتاج العلاقات أو توليدها. ويصف مفهومه عن الهيمنة صراعا متواصلا لخلق توافق أيديولوجي داخل مجتمع ما، في حين يؤكد مفهومه عن الحس المشترك على الطبيعة المُتشظّيّة والمتناقضة للمعاني والمعتقدات اللاشعورية التي يُضفي بها الناس المعنى على عالمهم."**[3]

واِستنادا إلى ما جاء به غرامشي، يؤكد "ارنستو لاكلاو" و"استوارت هول" على أن **"الأهمية الأيديولوجية لنص ما لا تتوفر توفرا مباشرا أبدا من النص نفسه. إذ لا يحمل النص موقفه الأيديولوجي على ظهره ليراه الجميع. ولا يمكن للمرء أن يعرفه بالتقدّم في الزمن، وكأنه يقوم فقط على أساس الموقف الطبقي أو الموقع الاجتماعي لمُنتِجِه. ومن هنا، فالايديولوجيا هي دائما مادة للعمل. فلا يمكن فهمها من خلال أيديولوجيا مُهيمِنة واحدة، لأنها دائما صراع أيديولوجي متواصل."**[4]

1)ط. بينيت، ل. غروسبيرغ، م. موريس، مفاتيح اصطلاحية جديدة، ص 133.
2)المرجع نفسه، ص 133.
3)المرجع نفسه، ص 135.
4)المرجع نفسه، ص 136.

من جهته لويس التوسير عرّف الايديولوجيا **"بأنها أنظمة التمثيل التي يعيش فيها الناس علاقاتها بالشروط الفعليّة لحياتها. فالايديولوجيا بُعد لا يُستَغنى عنه في الحياة الإنسانيّة، إذ هي الوسيلة التي يتم من خلالها إنتاج التجربة نفسها، وتصبح التجربة واقعا سياسيا أكثر منها "واقعة" طبيعية تظل تكتنفها دائما الممارسات المادية الفعلية للاستعمال اللغوي لدى المؤسّسات الاجتماعيّة الجزئيّة، وهي التي يُسميها أجهزة الدولة الإيديولوجية."**[1] فالأيديولوجية إذن هي قاعدة التصرفات الإنسانية.

يبقى أن الاستعمال الأشيع **"للإيديولوجيا في أواخر القرن العشرين كان إزدرائيا: فالايديولوجيا تطلق في مقابل "الواقع" و"العقل" و"الفلسفة" وحتى "الحقيقة". دائما الطرف الآخر، وليس المرء ذاته أبدا، هو الذي يمتلك ايديولوجيا."**[2]

وقد نتج عن هذه التطوّرات النظريّة عدة نتائج أهمها تمكين مفهوم الايديولوجيا من بسط تناوله إلى ما يتعدى التركيز الماركسي على الطبقة، **"ليظُم أبعادا أخرى للتّقسيم الاجتماعي تشمل العرق والجنس والجنسيّة. وبالنتيجة، أصبحت النظريّات الإيديولوجية عن العنصرية، وبالذّات عن رهاب المثيل، مظاهر مهمّة في التفكير النقدي في أواخر القرن العشرين."**[3]

نجد الايديولوجيا في (معجم المصطلحات الأدبية الحديثة) معرّفة على أنها: **"نظام فكري، أو نسق من الأفكار التي تعتنقها مجموعة من البشر، وتحدد رؤية العالم أو تفسير ظواهره، وترسم من ثم أسلوب مواجهة الحياة، وقد يتضمن نسق بعض التناقضات، ولكنها تستخدم بطريقة تخفي تناقضها عمن يعتنقونها."**[4]

---

1)ط. بينيت، ل. غروسبيرغ، م، موريس، مفاتيح اصطلاحية جديدة، ص 136.
2)المرجع نفسه، ص 137.
3)المرجع نفسه، ص 137.
4) محمد عناني، معجم المصطلحات الأدبية الحديثة، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، 2002، ص 42.

و"التحليل النقدي للخطاب" له مشروع يتمثل في: **"أولا، إعادة التعريف الشديد الخصوصية والدقة لماهية الإيديولوجية بمعنى الأنساق الاجتماعية العرفانيّة للتمثيلات الذهنية المشتركة اِجتماعيا والتي تراقب تمثيلات ذهنية أخرى مثل مواقف الطوائف الاجتماعية بما فيها أصناف التحيّز (المسبق)، والمناويل الذهنية[...]، ونريد ثانيا أن نبحث بحثا مُنَضَّما عمّا هي أبنية الخطاب كالأبنية الدلاليّة (الذوات، الانسجام) والتركيبيّة (ترتيب الكلمات... الخ.) والمعجميّة وأعمال اللغة... الخ. التي تتجلّى بواسطتها الآراء الايديولوجية في النص والكلام."**[1]

في حين يكتفي العديد من المفكرين بالتطرق إلى وجود عدة اختلافات وحتى تناقضات في اِستعمال مصطلح "الايديولوجيا"، فإننا في كتاب "تأويل الثقافات" لكليفورد.غ نلتمس دفاعا عن المصطلح حيث يؤكد أنه **"من الواضح الثابت أن مفهوم الايديولوجيا السائد في العلوم الاجتماعية الآن هو مفهوم تقويمي (يحتوي على الكثير من إطلاق الأحكام التّحقيرية). [إن دراسة الايديولوجيا] تتعامل مع طريقة في التفكير خارجة عن مسارها الصحيح، [...] إن الأفكار والعقائد، يمكن أن تتصل بالواقع بالواقع بطريق مزدوج: إما لحقائق الواقع، أو الصراعات، أو بالأحرى رَدّات الفعل التي تنشأ عن هذا الواقع."**[2]

ويذهب لحد القول أن الايديولوجيا ما هي إلا اِستجابة – حتميّة – للتّوتّر في الدور الاجتماعي، فهي تقدم مُتنفَّسا رمزيا للاضطرابات العاطفية التي يولّدها انعدام التوازن الاجتماعي: **"إن الايديولوجيا هي استجابة للتوتر، إلا أننا ندرج فيها التوتر الثقافي بالإضافة إلى التوتر الاجتماعي والتوتر النفسي. إن فقدان التوجه هو السبب المباشر وراء النشاط الايديولوجي."**[3]

---

1)محمد عناني، معجم المصطلحات الأدبية الحديثة، ص 295.
2) كليفورد غريتز، تاويل الثقافات، تر: محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ص 405.
3)المرجع نفسه، ص 404.

أما عند العرب، فإن "عبد الله العروي" في كتابه "مفهوم الايديولوجيا" يحيلنا إلى الصعوبات التي تواجه الكُتّاب العرب في إيجاد ترجمة شافية لهذا المصطلح باعتباره لا يحمل دلالة واحدة في لغته الأصلية **"إن كلمة الايديولوجية دخيلة على جميع اللغات الحيّة، تعني لغويا في أصلها الفرنسي، علم الأفكار، لكنّها لم تحتفظ بالمعنى اللغوي، إذ استعارها الألمان وضمّنوها معنى آخر، ثم رجعت إلى الفرنسية فأصبحت دخيلة في لغتها الأصلية، ليس من الغريب في هذه الحالة أن يعجز الكُتَّاب العرب عن ترجمتها بكيفية مُرضِيَة. إذ العبارات التي تقابلها – منظومة فكرية عقيدة، ذهنية ...الخ – تشير فقط إلى معنى واحد من معانيها."**[1]

مما سبق نستنتج أن الأيديولوجية على اِختلاف الاصطلاحات المسندة لها؛ قد لا تكون قناعاً بالنسبة للفرد بقدر ما هي أفقه الفكري، فهو لا يستطيع القفز فوق حدودها لأنها مَرتَعه الذهني والمنظار الذي يرى به ذاته ومجتمعه والكون كله.

3) عبد الله العروي، مفهوم الايديولوجيا، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان، ط5، 1993، ص 09.

في الرواية صراع صريح بين الإيديولوجيتين العربية الفلسطينية والصهيونية الإسرائيلية حيث تتجليان في كل من الشخصية الرئيسية وأصدقائه من اليهود، وفي الجهة المقابلة عائلته من المناضلين أو مؤيّدي القضية الفلسطينية.

- أمين والإسرائيليين:

يجسد أمين -الشخصية الرئيسية- الحالة الأمثل لعرض الإيديولوجيتين الفلسطينية والإسرائيلية، فهو العربي الذي اِختار إسرائيل للعيش، متسلحا بتفوقه الدراسي ثم نجاحه المهني **"اخترت كفاءتي معسكرا، ومبادئي حليفا، مؤمنا أني سأنتزع الاحترام على المدى الطويل."**[1] فقد كان تقبله في المجتمع الإسرائيلي ضربا من التحدي إلا أنه كان يؤمن بتحقيقه وإن كان ذلك يتطلب وقت طويل.

وهو ما لم يحدث فعلا فما إن صُدم بتفجير زوجته لنفسها، تنفيذا لعملية فدائية حتى صعق بردة فعل المجتمع، فقد كانت ردّة متطرفة، بطريقة تؤكد أن اِندماجه ليس أكثر من إشهار سياسي، ما أكده الجيران بطريقتهم الخاصة **"إرهابي قذر! حثالة! عربي خائن! [...] بصق عليّ رجلان ملتحيان قد ضفر كل منهما سالفيه [...] لا بد أولا من تطهيره قبل حرقه..."**[2] وهي إشارة لعدم اِعتبارهم إياه منهم يوما، وتحميله مسؤولية ما قامت به زوجته، وحتى ذنب أصله العربي.

"الشخص الذي يشغل نفسه كليا ودائما بواجباته اليومية لا يتخذ موقفا متفحصا من نفسه ومركزه، ومع ذلك فإن هذا الشخص سيكون، رغم ثقته بنفسه، عبدا لوجهة نظر جزئية حتى يصل إلى الأزمة التي توقظ الناس من أوهامهم وتحررهم منها."[3]

---

1)ياسمينة خضرا، الصدمة، تر: نهلة بيضون، دار الفارابي بيروت، ط1، 2007، ص 185.
2)المصدر نفسه، ص 72.
3) كارل منهايم، الايديولوجيا و اليوتوبيا، تر: محمد رجا عبد الرحمان الديريني، شركة المكتبات الكويتية، ط1، 1980، ص 171

وهو ما حدث مع أمين الذي كان غارقا في العمل معتبرا نفسه سعيدا ومندمجا، قبل أن تفجر زوجته نفسها و تكشف النقاب عن زيف الاندماج والسعادة التي كان يظنه أنه يعيشها.

لكن أصدقائه كانوا أكثر واقعية، في محاولة لإيجاد تفسير مقبول، بدءا بالإستجواب الرسمي مع نقيب الشرطة، والذي كان يريد أن ينتزع الإجابة من أمين **"لا بد لي حتما أن أعلم السبب الذي يدعوا امرأة تحظى بإعجاب محيطها، جميلة، ذكية وعصرية مندمجة يدلّلها زوجها وتعبدها صديقاتها اليهوديات بمعظمهن، لتتحزم بالمتفجرات بين عشية وضحاها وتقصد مكانا عاما لتعيد النظر بكل ما منحته دولة إسرائيل لكل العرب الذين استقبلتهم في كنفها."**[1] فبالنسبة للنقيب، العمليات التفجيرية أصبحت اعتيادية في إسرائيل، لكن الجديد هنا أن منفذها امرأة من المفروض أنها مندمجة في المجتمع الإسرائيلي؛ لا تعاني أي نقائص أو مشاكل ما يدحض كل الافتراضات التي يعتمدون عليها للتنبؤ بالعدو المحتمل.

نفس الاضطراب يعتري (نافيد) الشرطي وصديق أمين المقرب **"لا تتصور كم تقض مضجعي تلك المسائل. اللعنة! كيف يقرر شخص عادي، معافى في الجسد والذهن، بسبب استيهام أو هلوسة، أنه يضطلع بمهمة إلهية، ويتخلى عن أحلامه وطموحاته ليميت نفسه شر ميتة وسط أفظع تجسيد للهمجية؟"**[2]

فهو أيضا لم يجد تفسير منطقي لحالة (سهام) فإضافة لكونها لا تعاني اِضطرابات نفسية، ليس لديها أي دافع شخصي **"لا يقوم أحدهم بتفجير نفسه في مكان عام بدافع نزوة عابرة. إنها خاتمة غسيل دماغ طويل."**[3] في تفسير أكثر بعدا عن المنطق وإن كان قريب من الواقع، تذهب (كيم) زميلة أمين، إلى أن سهام لا بد تم غسل دماغها.

---

1)الرواية، ص 61.
2)المصدر نفسه، ص 112.
3)المصدر نفسه، ص 114.

أما أمين فكأنه راح يبرئ نفسه، من أي مسؤولية قد يحدثه بها ضميره **"سهام كانت سعيدة جدا."**[1] وإضافة إلى سعادتها، لم يفرض عليها أي قيود **"كانت سهام حرة."**[2] محاولا ربط حياة سهام وواقع الإِنتحاريين (فقدانهم للحرية والسعادة) وإن كان يحدّ من مفهومي السعادة والحرية ليختصرهما، في الجانب المادي البحت **"تتمتع بكل شيئ. لم أحرمها شيء."**[3]

ولكنه بعد تلقيه رسالتها اِضطربت كل قناعاته **"لئن انتحرت زوجتي، فهذا دليل على أنني لم أعرف كيف أجعلها تفضل الحياة. إنني أتحمل بالتأكيد قسطا من المسؤولية."**[4] منطلقا من فكرة أن الحياة بالنسبة لها لم تكن مغرية كفاية لتجبرها على البقاء، مغفلا أنها فجرت نفسها في مطعم يعج بالزبائن، ما يحمل دلالة اِنتقامية، أكثر من التعبير عن ملل روتين الحياة، ف **"الإضراب عن الطعام والتفجير الانتحاري متشابهان في أن كلاهما يحملان تناقضا ذاتيا، فإن كانا يمثلان أعراض ضعف ويأس فهما يمثلان أيضا مسرحين للتحدي، يصرح المفجر الانتحاري أن الموت أفضل من هذه الصورة البائسة للحياة."**[5] .

من وجهة نظر أمين ما يهم حقا هو الحياة بحد ذاتها، معتمدا على فلسفته كطبيب، مهمته إنقاذ الحياة، بحيث يرى أن المعتقدات التي تدفع بالمرء إلى حتفه تتنافى والمنطق السليم، مستخفا بالجانب الديني الذي يركز عليه القادة الدينيين، متهما إياهم بالقتل **"لقد اِخترت قتل الناس وأنا اخترت إنقاذ حياتهم. عدوك هو مريضي. لست أنانيا ولا مباليا[...] لست مؤمن بالنبوءات التي تفضل العذاب على المنطق السليم. جئت إلى هذا العالم عاريا، وسوف أرحل عنه عاريا؛ ما أملكه ليس لي، ولا كذلك حياة الآخرين. كل مآسي البشر بسبب سوء التفاهم ذاك: ما يمنحك إياه الله، عليك أن تعرف**

---

1)الرواية، ص 112.
2)المصدر نفسه، ص 261.
3)المصدر نفسه، ص 261.
4)المصدر نفسه، ص 122.
5)تيري ايجلتون، الإرهاب المقدس، تر: أسامة اسبر، بدايات للطباعة سوريا، ط1، 2007، ص 114.

كيف ترده. لا شيء على الأرض ملك لك حقا، لا الوطن الذي تتحدث عنه، ولا القبر الذي سيحيلك إلى تراب."[1] معتبرا أن لا شيء ملك خاص للإنسان حتى يقرر اِحتكاره والتصرف فيه على هواه، لا الوطن ولا حياة الآخرين؛ مشيرا إلى أن القادة هم من يدفع بالمواطنين العاديين إلى الموت. فهاهو يخاطبهم بلغة العدو **"ماذا قلتم لها لتتحول إلى وحش، إلى إرهابية، إلى أصولية اِنتحارية، هي التي كانت لا تتحمل سماع جرو كلب يئن؟"**[2] معتبرا نضالهم المقدس وحشية وإرهابا.

وكإشارة واضحة إلى اضطراب أفكاره، كأنه لم يعد يدري على ماذا يعتمد لإدانة منطق الجماعات الإِستشهادية الذي يسير عكس قانون الطبيعة، حيث من المفروض أن يكون البقاء للصفوة، إلا أن القادة يدفعون بالأخيار للتضحية بأنفسهم ليحيا الأدنى منهم **"لماذا التضحية ببعضهم من أجل سعادة الآخرين، الأخيار عادة والشجعان يختارون التضحية بحياتهم من أجل خلاص الذين يختبئون في أوكارهم. فلماذا التضحية بالعادلين والسماح للأقل عدلا بالبقاء على قيد الحياة؟ ألا ترى أن ذلك يدمر الجنس البشري؟ ماذا سيبقى منه بعد بضعة أجيال، إذا كان الأخيار مدعوين دائما للموت كي يواصل الجبناء والخسيسون، والدجالون، والسفلة التكاثر مثل الجرذان؟"**[3]

فحتى إن كان وراء كل هذا مزيج من الحقد، الغضب الوطن المسلوب، الحقوق الضائعة، وهو ما لا تتوانى جهات محددة عن استغلاله، لتجعل من التضحية بالنفس حل أخير وأوحد.

---

1) الرواية، ص 185.
2) المصدر نفسه، ص 179.
3)المصدر نفسه، ص 141.

يحاول أمين أن يدحض حجج كل قادة الفصائل؛ نسبة للاِعتبارات التي يمثلونها وينادون بها إن كانت دينية أو عسكرية، إلا أن منطقه الخاص يتشبع من قناعاته المهنية قبل كل شيء **"العالم الذي يسرده على مسامعي لا يُلائمني. الموت فيه غاية بحد ذاتها. وهذه كارثة بالنسبة إلى طبيب[...] لا أتماهى مع ما يقتل؛ فدعوتي إلى جانب ما ينقذ. أنا جراح. وعادل يطلب مني أن أتقبل تحول الموت إلى طموح، إلى أغلى أمنية، إلى فعل مشروع[...] أي بالضبط ما تحظره مهنة الطبيب حتى في أكثر الحالات يأسا."**[1] في إشارة منه إلى ممنوعات مهنة الطب(حتى الموت الرحيم)، لكنها لا تأخذ بعين الاِعتبار الحياة النفسية للفرد إنما فقط تلك الجسدية.

يعد التعصب للقناعات والتمسك بالاعتقادات أمر شائع، إلا أنها قابلة للتغير أو على الأقل للتكييف حين يكون العكس أقل تجريدا **"كنت أعرف العداوات التي تشوه الذهنيات من هذه الجهة وتلك، والتفتت الذي يظهره المتناحرون الذين يرفضون الحوار ولا يصغون إلا لضغينتهم القاتلة؛ ولكن مشاهدة مالا يطاق بأم العين يصدمني. في تل أبيب كنت أعيش على كوكب آخر."**[2]

كأن الواقع الفلسطيني جعله يعترف ضمنيا أنه في ظل حياده قد أغفل الكثير من الحقائق، فإن اِستماتة الفلسطينيين قد يكون لها حقا ما يبررها **"لم يكن لديا الوقت للاهتمام بالصدمات النفسية التي تقوض الدعوات إلى المصالحة[...] اِعتبرت موقفهم جميعا منافيا للعقل ومؤسفا. لم أشعر بنفسي أبدا معنيا."**[3]

لينتقل بعدها لتطبيق ذلك على حالة زوجته التي لم تكن بعيدة عن معاناة شعبها باعتبار أنها تحمل جروحا من الماضي قد لا تكون برئت يوما **"لا بد أن سهام كانت تحمل حقدها في أعماقها على الدوام[...] ترعرعت قرب المضطهدين، يتيمة وعربية**

1) الرواية، ص 264.
2) المصدر نفسه، ص 231.
3)المصدر نفسه، ص 191.

في عالم لا يغفر لهذه ولا لتلك[...] لئن اِنتهى بها المطاف لأن تتحزم بالمتفجرات، وتمضي إلى حتفها بعزم

لا يلين، فلأنها كانت تحمل في أعماقها جرحا تخجل من البوح به لشدة بشاعته وفظاعته."[1] بحيث يمكن لأي مثير أن يحيِي فيها حقدها الدفين **"اعتداء إضافي على شاشة التلفاز، اِنتهاك في الشارع، إهانة عابرة، أبسط الأمور تؤدي إلى عواقب وخيمة، حين يحمل المرء الحقد في أعماقه"**[2] فما عانته في الطفولة جعل منها هشة سهلة التأثر.

بعد تحليله فعلها، قام بإرجاعه إلى عقد نفسية تحملها منذ الصغر، مما يجعل من تفجيرها لنفسها مجرد ردة فعل للمثيرات.

1)الرواية، ص 263.
2)المصدر نفسه، ص 264.

- سهام و الفلسطينيين:

في الجانب الفلسطيني تتعدد القناعات التي ينطلق منها القادة المناضلين، لكن الهدف واحد؛ إقناع وإعداد الشباب للتضحية بأنفسهم، وإن كانت بالنسبة للممثلين مجرد وسيلة لِاسترجاع، الحرية، الوطن، الشرف، الكرامة، الحق في الحياة... إلا أنها بالنسبة للمنفذين غاية في حد ذاتها، لذا لكل قائد منطقه في جعل أتباعه يتبنون هذا اليقين.

ففي الجانب الديني الذي يمثله (الشيخ مروان) نجد خطبته أبعد ما تكون عن اللغة الدينية **"في الحقيقة يا إخوتي ثروة الإنسان ليست فيما يملك بل فيما يتركه وراءه؟ ...وطنا؟ أي وطن؟ ...تاريخا؟ ...أي تاريخ؟ ...آثارا؟ ...أين هي؟ أستحلفكم بأجدادكم، أرشدوني إليها ... كل يوم، تهرس الدبابات أقدامنا، وتقلب جراراتنا، وتهدم بيوتنا، وتفتح النار بلا إنذار على أطفالنا. كل يوم العالم بأسره يشهد ماساتنا..."**[1]

فهو يركز على الواقع المزري للشعب، والِاضطهاد الذي يعاني منه، إضافة أن العالم بأسره يشهد ذلك ولا أحد يهب للمساعدة، ليبيح بعدها الموت في سبيل التغيير، مغريا أتباعه بأن كل الثروة فيما يتركه الإنسان خلفه، ففعل التخلي عن الحياة في هذه الظروف **"يسمح لهذه التضحية بأن تتألق كخلفية مضيئة لاضمحلالك في الموت، تدفع إلى المقارنة بين فنائك و بقاء ما تموت من أجله."**[2].

وهو ما لا يتوانى البعض عن اِعتباره تشريع إلهي، ما تجلى في ردّة فعل أحد الشباب حين رفض "أمين" الِاستماع إلى هذه الخطبة **" زعق جاحظ العينين فاغر الفم: ألا تؤمن بالله ؟ "**[3] فالشاب يعتبر كلام الشيخ مصدره الله مباشرة وهو ربما ما يجعل أمثاله لا يتوانون عن الِاستماتة في تطبيقه.

---

1)الرواية، ص 137.
2) تيري ايجلتون، الإرهاب المقدس، ص 84.
3)الرواية، ص 137.

الشيخ نفسه مقتنع بأنه مكلف بمهمة إلهية وعليه أداؤها تعبيرا عن شجاعته **" كل امرئ شجاع موكل بها وإلا كان متبجحا أنانيا وظالما."**[1] أي أنه فقط يكتفي بأداء واجبه لينفي عنه صفات مذمومة كالتبجح والأنانية والظلم.

ومن جهة أخرى هناك المناضلين باسم الحقوق المهضومة، بلا خلفيات دينية ولا سياسية **"لسنا إسلاميين ولا أصوليين يا دكتور جعفري، إنما مجرد أبناء شعب منتهك ومضطهد يقاتلون بالوسائل المتاحة لاستعادة وطنهم وكرامتهم."**[2]

دافعهم الوحيد هو الحرمان الذي يعانون منه، لا يصبون إلا لاسترجاع وطنهم المسلوب؛ بالتالي حقوقهم وكرامتهم. فالواقع المرير هو قاعدة نضالهم **"والحقيقة أن قلة قليلة ممن ينعتون بالإرهابيين هم مفجرون انتحاريون، فهناك عدد كبير من الذين ليسوا كذلك يقاتلون من أجل أهداف يمكن أن يعدها أعداؤهم شرعية في ظروف سياسية أخرى."**[3] ذلك ان واقعهم يدفع بهم دفعا نحو تلك النهاية **"إننا نعيش في عالم يتناحر في كل يوم يمن الله علينا به، نمضي لياليا نلملم موتانا، ونقضي نهارنا ندفنهم. وطننا ينتهك انتهاكا أشبه بخبط عشواء، وأطفالنا نسوا ماذا تعني كلمة مدرسة."**[4] فما يشهدونه يوميا أكثر من كاف لتبرير توجههم.

وفي نظرهم القضية أكثر قداسة من أن تعيقها الأحزان لأجل حياة الأفراد المضحين **"تحدثني عن زوجتك ولا تسمعني أحدثك عن وطنك. إذا كنت ترفض أن يكون لك وطن، فلا ترغم الآخرين أن يتخلوا عن وطنهم، أولئك الذين يطالبون به بملء حناجرهم يهبون حياتهم ليلا نهارا. لا يقبلوا أن يموتوا وسط اِزدراء الآخرين واِزدرائهم لأنفسهم، فإما الكرامة أو الموت إما الحرية أو القبر، إما العزة أو المقبرة**

---

1) الرواية، ص 174.
2)المصدر نفسه، ص 182.
3) تيري ايجللتون، الإرهاب المقدس، ص 123.
4) الرواية، ص 184.

الجماعية. ولا حزن لا حداد، سيثنيهم عن القتال من أجل ما يعتبرونه، عن حق، جوهر الوجود وهو الشرف."[1] موضحا أن من اِختاروا الموت لأجل الوطن مقتنعون باِختيارهم، إضافة لكونه الحل الوحيد الذي يصون شرفهم، وإلا فحياة بلا كرامة.

نفس الدوافع تقريبا تتبناها الجهة العسكرية **"أردت أن تفهم لماذا نحارب يا دكتور جعفري، لماذا يرتمي الأطفال على الدبابات كأنهم يرتمون على علب الملبس، لماذا مقابرنا ضخمة، ولماذا أريد أن أموت وسلاحي بيدي... لماذا ذهبت زوجتك لتفجر نفسها في مطعم. لا كارثة أكبر من المهانة. إنها مأساة غير قابلة للقياس يا دكتور تحرمك من رغبة العيش. ومادام موتك مؤجلا، فثمة فكرة واحدة تقض مضجعك: كيف تموت بكرامة بعد أن عشت بائسا، أعمى، وعاريا؟"**[2]

موضحا أنهم لا يضحون بأنفسهم استهانة بالحياة، لكن حياتهم تفقد قيمتها لأنها مليئة بالمآسي، الإذلال، العجز، فقدان الاعتبار**"إذا كان انتحارك هو السلاح الوحيد الذي تمتلكه، أي إذا لم كن تملك شيء تضحي به سوى جسدك، فلا شك انك فقير معدم، ولكن انتحارك يمثل أيضا سخرية وحشية من عتاد عدوك العسكري الثقيل."**[3]

ككل الناس، يكرهون الحروب، ويملكون أحلاما وردية إلا أنهم يصطدمون بالواقع الذي يجهض كل أمل في نفوسهم **" كل الشبان الذين شاهدتهم، بعضهم بالمقالع وبعضهم بالراجمات، يكرهون الحرب كرها أعمى لأن رصاص العدو يحصد كل يوم واحدا منهم في شرخ شبابه. وهم بدورهم يريدون أن يتمتعوا بحياة لائقة، أن يصبحوا جراحين ومطربين مشهورين وممثلين معروفين، وأن يقودوا سيارات فارهة، ويقضموا القمر كل ليلة."**[4] فماذا تصبح الحياة حين تفقد فيها حتى الحق في

---

1)الرواية، ص 186.
2)المصدر نفسه، ص 252.
3)تيري ايجلتون، الإرهاب المقدس، ص 124.
4) الرواية، ص 253.

الأحلام ! **"المشكلة أنهم يمنعونهم من تحقيق أحلامهم يا دكتور. يسعون لِاحتجازهم في المعازل، إلى أن يتماهوا معها كليا. ولذلك، يفضلون الموت. عندما تحبط الأحلام، يصبح الموت الخلاص الأخير..."**[1] كل هذا يجعل الحقد يعشش في نفوسهم، وليس هناك أقوى من الحقد لصنع الكوارث **"لقد تعرضت للإهانة وأعرف ما هي. كل المآسي ممكنة حين تنتهك الكبرياء، ولاسيما حين يلاحظ المرء أنه لا يملك وسائل كرامته، وأنه عاجز. يتعلم المرء أن يحقد حقا اِنطلاقا من اللحظة التي يدرك فيها عجزه. إنها لحظة مأساوية؛ أفظع اللحظات وأبغضها."**[2]

موضحا أنهم لا يملكون خيارات، أمام تعرضهم للإهانة وشعورهم العجز، فهاهو حائز على جائزة نوبل للسلام يصرح **"لم نلجأ إلى النضال المسلح إلا عندما سدت في وجوهنا أبواب المقاومة الأخرى"**[3]

في تفسير المناضلين لإشكالية انتحار (سهام) التي يُفترض أنها كانت سعيدة في حياتها **"لم ترغب سهام بهذه السعادة[...] والأسلوب الوحيد للتنصل منه كان الانضمام لصفوف القضية. إنه المسار الطبيعي لمن تنتمي إلى شعب يعاني. لا سعادة بلا كرامة لا حلم ممكن بدون حرية... كانت تريد أن تستحق العيش، أن تستحق انعكاسها في المرآة، أن تستحق الضحك عاليا، لا أن تنتهز فرصها فقط."**[4] فهي لم تتنكر يوما لِانتمائها **"لم تعد تطيق أن تتمتع بأشعة الشمس فيما ينوء شعبها تحت النير الصهيوني."**[5]

كأنها كانت سعيدة على حساب وطنها وشعبها، مما جعلها ترى سعادتها ذنبا يجب أن تكفر عنه، إضافة إلى أن الحرية لا تختزل في اِنعدام الحواجز الملموسة **"ليست**

---

1)الرواية، ص 253.
2)المصدر نفسه، ص 252.
3)نيلسون مانديلا، رحلتي الطويلة من اجل الحرية، تر: عاشور الشامس، جمعية نشر اللغة العربية- مصر، ط1، 1994، ص 489.
4)الرواية، ص 262.
5)المصدر نفسه، ص 245.

الحرية جواز سفر يسلم في مركز الشرطة[...] فالسفر أينما شئنا ليست حرية، والأكل حتى الشبع ليس النجاح. الحرية اِقتناع عميق؛ إنها أم كل أشكال اليقين[...] كنتما تعيشان تحت سقف واحد، وتتمتعان بالامتيازات نفسها، ولكنكما لا تنظران في الاِتجاه نفسه. كانت أقرب إلى شعبها من الفكرة التي تكونها عنها."[1]

فبينما كان أمين يحاول الهروب من ماضيهما المتمثل في فلسطين، كانت سهام تجد صعوبة في تقبل حاضرهما المتمثل في إسرائيل، فحتى إن تقاسما نفس الحياة إلا أن وجهة نظريهما مختلفة، حتى أن مفهومهما عن الحرية كان مختلفا، والحقيقة أن لها وجهان **"فهي كمثل الإله ديونيسوس، ملاك و شيطان، جمال وإرهاب في آن، وإن كان هناك شيء ما مقدس تملكه الحرية فليس عائدا إلى أنها إحدى القيم النفسية بل أنها قادرة على التدمير مثلما هي قادرة على الخلق."**[2]. وعندما تهون الحياة بكاملها لا يبقى للتفاصيل أي أهمية، فواجبها اِتجاه الوطن أولى من واجبها اِتجاه زوجها **"سهام امرأة قبل أن تكون زوجتك. لقد ماتت من أجل الآخرين[...] لماذا تريد لسهام أن تبقى خارج تاريخ شعبها[...] هذا هو ثمن الحرية..."**[3]

وفي إشارة إلى كون كل هذه الصراعات والأهوال والكوارث، سببها فئة معينة لها خلفيات تتعصب لها ليذهب ضحيتها الشعبين على السواء، حيث نجد من الجانب اليهودي عجوز رفض الاستقرار داخل حدود الجدار العازل مستهجنا إياه **"شارون يقرأ التوراة بالمقلوب. يظن أنه يحمي إسرائيل من أعدائها، ولكنه يحتجزها في معزل آخر"**[4] في إشارة لعدم تبني كل اليهود للسياسة الإسرائيلية.

بينما يعتقد أمين أن الحل الوحيد لهذا الصراع يتمثل في **"أن نفرج عن الله، بعد كل هذا الوقت الذي كان فيه رهينة تزمتنا وتعصبنا"**[5] معتقدا أن التعصب الديني هو

---

1)الرواية، ص 262.
2)تيري ايجلتون، الإرهاب المقدس، ص 87.
3)الرواية، ص 261.
4)المصدر نفسه، ص 275.
5)المصدر نفسه، ص 279.

القاعدة، في إشارة إلى ادعاء الطرفين أن الأرض من حقهم بتفويض الهي؛ نظرا لِاحتوائها مقدساتهم الدينية، كجبل صهيون وحائط المبكى بالنسبة لإسرائيل، وقبة الصخرة والمسجد الأقصى بالنسبة للفلسطينيين.

المبحث الثاني:

الهوية

يُعد مفهوم الهويّة متشعّب الدلالات **"متعدِّد الأشكال وغير محدود"**[1] نجد له عدّة تعريفات تحاول في مجملها لمس مختلف جوانب المصطلح؛ من معنى رسمي يتجسّد في واقع الفرد والمصرح به في أوراقه الثبوتية، وآخر خاص بشعور الفرد ذاته وإن لم يَعترِف بذلك الغير، ففي معجم مصطلحات العولمة الهوية معرفة على أنها **"عمليّة تمييز الفرد لنفسه عن غيره من سماته، والهوية الواضحة هي هوية جواز السفر التي تحدد جنسية الفرد وديانته، أما مبدأ الهوية المقصود بأن الموجود هو ذاته أو هو ما هو، فالهوية أن يَعرف الشخص جذوره وميوله و يؤكد على انتمائه لهذه الجذور."**[2]

للهوية أيضا معنى حقوقي، حيث أنها **"أولا لقب، لكن كذلك اسم على الأقل موروث عن سلالة (سلالتين في الحقيقة...)، وإذا كانت أحيانا فئة اجتماعية مهنية (وضع وضيفة بصورة خاصة،هي أيضا جنسية. في بطاقات الهوية المتباينة وفق الدول، يمكن أن تُطلَب معلومات متنوعة (تاريخ و مكان الولادة العنوان، لون العينين، العلامات الفارقة...) لكن يفترض دائما أن يُسجَّل فيها عنصران مفتاحيان: الاسم والجنسية[...] تقع الجنسية في جوهر الهوية الحقوقية مثلما يقع الاسم في جوهر الهوية الشخصية."**[3] وهذه الأخيرة لا يمكن فصلها عن السياسة ولا العمل ولا مستقبل الشخص.

"كما تتلازم الهوية الشخصية مع المسار المهني، مع معنى النشاط طيلة الحياة، مع فرص التأهيل والتقدم والتوصل إلى نشاطات مؤهِّلة وقَناعات والتزامات سياسية. وتطورها طيلة الحياة.هذا البناء الهوياتي هو إذن في المكان ذاته مسألة خاصة بوضوح، ومسألة عامة وبالتالي سياسية، بأقوى معنى الكلمة، ينبغي أن يتمكن كل فرد بوصفه مواطن أو مجرد كائن بشري، من العثور على مبادئ لبناء

---

[1] كلود دوبار، أزمة الهويات، تر: رندة بعث، المكتبة الشرقية- بيروت- لبنان، ط1، 2008، ص 16.
[2] إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي، معجم مصطلحات عصر العولمة، موقع "كتب عربية" الالكتروني، ص 497.
[3] كلود دوبار، أزمة الهويات، ص 230.

هويته الشخصية، بما في ذلك الموارد الرمزيّة التي تمكنه من الوصول إلى المواطنة"[1]. للهوية عدة مشارب أيضا كالمهنة، والتوجهات السياسية.

لخص "كلود دوبار" الأشكال الهوياتية بوصفها طرائق مماثلة للأفراد في " **الشكل السردي للغير، الشكل العلائقي للغير، الشكل العلائقي للذات، الشكل السردي للذات."**[2] معتبرا أنه "**لا يمكن فصل هذه الأشكال الهوياتية عن الصلات الاجتماعية التي هي أيضا أشكال للغيرية، لا وجود للهوية دون غيرية، وبالتالي دون صلات بين الذات والأخر."**[2] أي أن الهوية التي يَعيها الفرد لا تتحقق إلا باعتراف الآخرين بها، كما أنها قد تكون مرتبطة بهويات الآخرين (جماعية).

هناك أيضا الهوية **"(الذاتية) التي تعد أحد المبادئ الأساسية في الفكر، يقول بأن الشيء لا يمكن أن يكون الشيء نفسه و شيء آخر."**[3] وهناك الهوية الأدبية وهي **"سمات مميزة للكاتب، أو الفنان، تبرز في إنتاجه، وتشيع فيه لونا معين هو في واقعه، محصل للميران الطويل، وللموهبة المثقفة. وقد تكون الهوية أيضا مجموعة الخصائص العينية المميزة لأثر فني، أو لمجموعة من الآثار."**[4]

أما في تحليل الخطاب فالمصطلح لا يستعمل فردا إلا بإضافة مفهومين آخرين جاريين أيضا في ميدان الفلسفة وعلم النفس، هما "الذات والغيرية" **حيث " يسمح المفهوم الأول من هذين المفهومين بوضع وجود الكائن المفكر على أنه يقول "أنا"[...] ويسمح المفهوم الثاني أن نقول بأنه لا وعي بالنفس دون وعي بوجود الآخر، وبأنه حسب مقدار الفرق بين "النفس" و"الآخر" تتكون "الذات".كما يمكن أن نعتبر أن هوية صاحب الخطاب تبنى بطريقتين مختلفتين في ميدانين هما في آن**

1)كلود دوبار، أزمة الهويات، ص 285.
2)المرجع نفسه، ص 104.
3)المرجع نفسه، ص 106.
4)جبور عبد النور، المعجم الأدبي، ص 282.

واحد مختلفان ومتكاملان، والاثنان مركبّان مرتبطين بعملية التلفظ : هوية تسمى" شخصية " وهوية تسمى "موقعية"."[1] أي أن الفرد في خطابه وإن كان لا يعبّر إلا عن نفسه لكنه في الآن ذاته يُدمِج غيره لأن الهوية الذاتية لا يمكن عزلها عن الغيرية سواء للمقارنة أو تأكيد الانتماء أو حق الاعتراف بما يدعيه كل فرد أنها هويته.

الهوية هي جمع بين الاسم العائلي للفرد أي انتماؤه إلى عائلة معيّنة، وتبنيه أو شعوره بالانتماء إلى ثقافة ودين معيّنين وذلك ما يتشاركه مع جماعة أكبر من العائلة وتتجسّد الهوية في تمثيل الفرد لهذا الانتماء وتأكيده من طرف الجماعة، وغياب أحد العنصرين يتسبب للفرد في اضطراب هوياتي يدخله في صراع نفسي، يحاول فيه إما التخلي عمّا يعتقده هويّته وتقبُّل ما تفرضه الجماعة أو العكس؛ التعصب ومحاولة إرغام الآخر على الاعتراف .

معنى الهوية إذن متداخل بين كونه خاص جدا وملك للفرد، عام في الوقت نفسه وللجماعة حق فيه.

.

1)ب. شرودو، د. منغو، معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر لمهيري و حمادي صمود، منشورات دار سينيلترا تونس، 2008، ص 291.

في الرواية أزمة هويات صريحة، منها الفلسطينيين الذين يحاولون إثبات انتمائهم إلى وطن مسلوب وبالتالي الرغبة في استعادته كي يشرفوا هذا الانتماء، وهناك أمين الذي يحاول التنصل من انتماءاته القومية وتبني مبادئه المهنية، إضافة للحقوق التي تكفلها له جنسيته الإسرائيلية، هذه الأخيرة العاجزة على دمجه في المجتمع، وهو ما تأكد عند أول عقبة.

اثر تنفيذ سهام للعملية التفجيرية، أول ردة فعل كانت من رجال الشرطة، حيث اعتُبر أمين مشبوها فقط لأنه عربي **"عبثا أبرزت أوراقي وجاهرت بمهنتي، فرجال الشرطة لم يبالوا إلا بسحنتي"**[1] ففي هذه الحالات تعجز الأوراق الثبوتية عن سد فجوة الاختلافات الرهيبة بين الشعبين.

رغم أنه لم يكن له أي ميول عقائدية، مكتفيا بإتباع مبادئه المهنية **"اِخترت كفاءتي معسكرا، ومبادئي حليفا، مؤمنا أني سأنتزع الإِحترام على المدى الطويل [...] كانت أقل هفوة قاتلة بالنسبة إلى عربي يتميز عن أقرانه[...]"**[2] وهنا تجدر الإشارة إلى دور الآخر في إثبات أو نفي الهوية **"من أجل إحياء الهويات المهنية، لا بد من استقرار نسبي في القواعد الناظمة لها وفي الجماعات التي تدعمها."**[3]

فحتى إن قرر الانتماء إلى إسرائيل إلا أنهم دائما يذكرونه بأنه ليس منهم "**رأيت نفسي عل مضض أمثِّل جماعتي[...] لم أكن بحاجة إلى تفويض من أهلي، فنظرة الآخرين توكلني حكما بهذه المهمة"**[4] هو في نظرهم ليس فقط عربي إنما ممثل عن كل العرب، فهو يعكس صورتهم، باعتباره عربي النسب، أي أن هناك أجزاء من الهوية لا يمكن التصرف فيها، كما أن الغير له لدور في إثبات الهوية فلا يمكن فصل **"الأشكال الهوياتية عن الصلات الاجتماعية التي هي أيضا أشكال للغيرية."**[5]

---

1)الرواية، ص30. .
2)المصدر نفسه، ص 114.
3)كلود دوبار، أزمة الهويات، ص 209.
4)الرواية، ص 115.
5)كلود دوبار أزمة الهويات، ص106.

العلاقات الاجتماعية تأثير على ما يعتقده الفرد هويته، وذلك بإثباته أو نفيه وهو أثر يعجز الفرد عن التصرف أو التحكم فيه، فهو يجسد سيطرت المجتمع على الفرد.

قد يعود عدم تعلقه بالوطن على الطريقة التقليدية ورثه عن والده، هو الذي أعلن عصيانه للتقاليد والتعصب لها متحديا الجد وتقديسه لأراضيه **" لم يشأ والدِي أن يرث قصر بصره. لم يتحمس أبدا للزراعة بل أراد أن يكون فنانا[...] مما يعني في قاموس الأجداد متبطلا وهامشيا."**[1] فلم يكتفي والده بعدم التحمس للزراعة بل أراد أن يكون فنانا مجسدا الصورة الأكثر تخييبا للأجداد، ولكن أيضا شجاعة وقوة في شخصية تريد التغيير ترفض القيود البالية، تتوق لنوع من التحرر خاصة بالنظر إلى التوجه الذي اختاره (فنان)، وقد تأثر أمين بوالده وإن كان بجرأة أكبر، حيث اقتصر والده على تحدي العائلة أما هو فقد أعلن تحدي للمجتمع بأسره.

يجد أمين نفسه يعيش في أكذوبة، فحياته التي اعتبرها ناجحة لم تكن سوى مسرحية وخدعة سياسية **"حقيقة العربي الذي يعتقد أنه نجا بفضل جواز سفر إسرائيلي؟ حقيقة الشخص الذي يجسّد نموذج العربي بِامتياز، والذي يغدقون عليه التكريم في كل مناسبة، ويدعونه إلى حفلات اِستقبال راقية للتأكيد أمام المجتمع على مدى تسامحهم واِهتمامهم؟ حقيقة ذاك الذي ظنّ أنه يبدل جلده إذ يتخلى عن مبادئه، وينجح في التحول تماما؟"**[2] مشيرا إلى أنه ومع كل التضحيات والتنازلات التي قام بها، لم يحصل بالنتيجة إلا على امتيازات سطحية تخدم الجانب الإسرائيلي في اعتباره نموذج عن نجاح الإدماج بالنسبة للفلسطينيين الذين لا يهددون أمن إسرائيل ويقبلون الحياة وفق مبادئها.

من وجهة نظر المناضلين حياة أمين خالية من أية قاعدة، فهو لم يعد فلسطيني لأنه تخلى عن شعبه، كما أنه لم يُقبل تماما في إسرائيل، فبينما كان يتحرى الحياد بين

---

1)الرواية، ص 115.
2)المصدر نفسه، ص 184.

الاثنين إذا به لا يكسب إلا الرفض، بينا الكل يرحب بموقف "سهام" معتبرين **"إنه المسار الطبيعي لمن تنتمي إلى شعب يعاني."**[1] أي أنها ردة فعل طبيعية بالنظر إلى معانات شعبها **"فالفاعل المأزوم هو أيضا فاعل اجتماعي. ينبغي عليه العثور مجددا على مرجعيات ومعالم"**[2] هذه المعانات التي لم يكن يجهلها أمين إنما يتجاهلها، وذلك بمحاولة الانتماء إلى الطرف الآخر من الصراع، ما جعله يكتسب نظرة حيادية يستهجن فيها الصراع ككل ولا يعتبر نفسه جزءا منه.

لكنه بعد تجربته بيت لحم، نلتمس عتابه لنفسه **"تخليت عن عشيرتي، وقبلت الإِنفصال عن أمي، ووافقت على التنازل تلو الأخر من أجل تكريس نفسي فقط لمهنتي كجرّاح[...] إِعتبرت موقفهم جميعا منافيا للعقل ومؤسفا. لم أشعر بنفسي أبدا معنيا."**[3] فهو يقول "تخليت" بمعنى رحل في حين يتوجب عليه البقاء، بالإضافة إلى انفصاله عن أمه لم يكف عن تقديم التنازلات، كل هذا ليكرس نفسه لمهنته لكنها لم تشفع له عند الإسرائيليين.

كما كان لموقف والده أثر في تمرده، لعائلته الكبيرة أيضا دور في تكون شخصيته منه هويته التي لا يستطيع إنكارها أو التنصل منها " **لا أحد منهم يلومني على رحيلي بعيدا وبقائي طويلا هناك[...] يغفرون لي جميعا تجاهلي لهم لسنوات طويلة."**[4] في إشارة إلى كونهم في النهاية عائلته إلى حيث ينتمي حقا، فحتى إن طال غيابه وكان مقصودا، لم يلوموه على القطيعة إنما اكتفوا بالتعبير عن شوقهم وحبهم، وهو ما أشعره بالذنب والتقصير، حيث يضيف **"حين شاهدت كل هؤلاء الناس يعبرون لي عن محبتهم، وليس لدي ما أتقاسمه معهم سوى ابتسامة، أدركت مدى**

---

1)الرواية، ص 262.
2)كلود دوبار، ازمة الهويات، ص 303.
3)الرواية، ص 280.
4)المصدر نفسه، ص279.

الفقر الذي أصابني"[1] كأنه يدرك أخيرا أن ليس هناك أغنى ممن يملك عائلة وحبا صادقا يمنحه لها، وهو ما فقده نظرا لغيابه لعدة عقود، فقدانه لماهية الانتماء الحقيقي.

ثم كأنه يكتشف بعد كل هذا أنه لم ينجح في الانفصال تماما عن هويته وانتمائه، وأنه أخطأ التقدير **"إعتقدت أنني أقطع أواصري إذ أولي الظهر لهذه الأراضي المُخرَّبة المُكمَّمة. كنت لا أريد أن أشبه أهلي، وأخضع لبؤسهم، وأتغذى بصلابتهم"**[2] يبرر قطيعته للأرض والتي لها نصيب من حقيقة هويته، فقد كره العيش فيها كونها مخربة ومُكمّمة، جراء الصراع الناشب فيها وعليها، إضافة لرفضه أن يكون مصيره كأهله خاضعين للبؤس وإن كانوا يمتازون بالصلابة والتي لا تزيد من وضعهم إلا سوءا.

ليواصل **"لقد تخليت عن بساتين جدي، وألعاب طفولتي، وحتى عن أمي لئلا أضطر للإرتباط بإيماءة رأس سخيفة كانت السبيل الوحيد ، كما يبدو لي، لتحويل مصيري إلى ملحمة بما أن كل الملاحم الأخرى تُخرجني حُكمًا من السباق"**[3] فهو يرى أن الانتماء الذي ضحى به كان ليجبره على الذل.

أثناء تجوله في المكان الذي قضى فيه طفولته، التقى بيهودي عجوز اختار العيش إلى جهة الفلسطينيين **" كل يهودي من فلسطين هو عربي بعض الشيء وما من عربي من عرب إسرائيل يستطيع الادعاء أنه ليس يهوديا بعض الشيء "**[4] في إشارة إلى أن للمكان كما للمجتمع تأثيرهما على هوية الفرد أو مكونات الهوية التي عليه أن يحملها بالولادة **"الوجود الاجتماعي للأفراد دون رغبتهم يشكل سلوكياتهم دون أن يدركوا."**[5] .

1)الرواية، ص 280.
2)المصدر نفسه، ص 280.
3)المصدر نفسه، ص 280.
4)المصدر نفسه، ص 278.
5)كلود دوبار، أزمة الهويات، ص 278.

اليهودي بدوره يرفض الحدود التي فرضتها السياسة مستعينة بالجدار **"أوافقك الرأي تماما. فلماذا كل هذا الحقد وأواصر القربى هي نفسها؟"**[1] في إشارة إلى أن الشعبين القريبين جغرافيا من بعضهما ولا يفصلهما ماديا إلا جدار وحواجز الأمن، هذين الاثنين عاجزين عن عزل الأفكار والثقافة، إضافة إلى قرابتهما من حيث الدين باعتبارهما من أهل الكتاب والإسلام لم ينفي اليهودية كدين، و اعتبار المسلمين أن المتضرعين في الدين من أهل الكتاب لا ينكرون الإسلام بدورهم.

أمين الرافض لأي انتماء معنوي تتفجر مشاعره **"في اللحظة التي انهار جدار السور،جاش الغضب في داخلي، و انقضضت على الجرّافة. اعترض أحد الجنود سبيلي؛ · دفعته وهاجمت الوحش الذي يدمر تاريخي."**[2] يعتبر أنهم يدمرون تاريخه الخاص حين هدموا بيت جده، هذا البيت الذي شيده جده الأكبر بيديه ورأت فيه النور أجيال عديدة **"كانت جرافة واحدة كافية لتحويل الأبدية بكاملها، في دقائق معدودة، إلى هباء."**[3] في إشارة إلى القداسة التي يحظى بها عنده هذا البيت، وإلى الطريقة التافهة التي يحولونه فيها إلى عدم.

قضى حياته محاولا التنصل من انتمائه وتبني هوية جديدة كانت في نظره الحل الأمثل ليتجنب الذل والخضوع مثلما كان حال عائلته، وبينما نجح في جعل تصرفه حياديا وكذلك أحكامه، محاولا أن يجد مبررات لإقناع نفسه بحسن اختياره أو بضرورته على الأقل، لكنه أثناء هذيانه اثر الإصابة، عاد ليرى نفسه طفلا حين كان حرا سعيدا **"يحاذي الطفل الأعشاب البرية، ويهجم على الجدار الذي ينهار مثل فاصل من الورق المقوى موسعا الأفق..."**[4] وقد كان لهذا الطفل قوى خارقة حيث جعل همه الجدار الفاصل، والذي قام بهدمه ليوسع الأفق، وإن كانت رغبته الأخير توسيع الأفق البصري إنما رغبة منه في أن يتسع الأفق الذهني أيضا، ثم وكأنه يقوم

1)الرواية، ص 278.
2)المصدر نفسه، ص 285.
3)المصدر نفسه، ص 285.
4)المصدر نفسه، ص 294.

بصنع المعجزات التي تعذب نفسه ولم يستطع تحقيقها في الواقع **" تنهض دار الجد من أنقاضها..."**[1] في إشارة أيضا إلى عدم تقبله أن يتحول بيت جده إلى هباء، منه تاريخه وهويته.

بعدها يسمع صوت والده الرسام، الوالد الذي طالما كان له أشد التأثير على قراراته واختياراته **"بوسعهم أن يحرموك من كل شيء؛ أملاكك، أجمل سنوات عمرك، كل أفراحك، ومجمل انجازاتك، حتى أخر قميص عندك – ولكنك ستحتفظ دائما بأحلامك لإعادة إبداع العالم الذي صادروه منك."**[2] للغير قدرة فعلية على جعل الفرد يعاني، لكن لا احد يستطيع لمس الأحلام لأنها ملك شخصي، للفرد فيها قوة سحرية يستطيع خلالها أن يعيد امتلاك كل ما صادروه منه.

.

1)الرواية، ص 294.
2)المصدر نفسه، ص 294.

المبحث الثالث:

الوطن

بقدرما تتقارب التعريفات المقدمة للوطن إن كان لغويا أو رسميا فهي تتباعد من الناحية الأخرى وتتعدد الصور أو القيم المعنوية التي يُقدّمها المواطن للوطن المُنتمي إليه، والذَيْن تنشأ بينهما طبيعيا علاقة "المواطنة" وهي الانتماء القانوني لوطن والشعور بذلك، أو ما نُطلق عليه "الوطنية" وهو مفهوم لا يمكن عزله عن معنى الوطن.

الوطن لغويا من: وَطَنَ بالمكان يطِنُ وأوطنَ: حلّ فيه وأقام به، وأوطنه: اتّخذه وطنا، والوطن: المنزل تقيم به وهو موطن الإنسان ومحلّه [1] والوطنية انتساب إلى المكان الذي يستوطنه الإنسان.[2]

في حين عُرِّفت الوطنية تعريفات اصطلاحية منها **"حب الوطن والشعور بارتباط باطني نحوه."**[3] والوطنية **"مشاعر عاطفية و وجدانية تتكون عند الفرد تجاه الوطن أو الأرض التي يحبّها"**[4] كما أنها نزوع شعوري وفكري يعني حب الوطن والاهتمام به، والتضحية في سبيل رفعته، وهي ليست حديثة وإنما عواطف قديمة وُجدت بوجود الإنسان ذلك أن الإنسان يشعر بتعلق عاطفي وارتباط قلبي بالمحلّ الذي ولد ونشأ وترعرع فيه[5].

تعرف موسوعة كولير الأمريكية المواطنة بأنها أكثر أشكال العضوية اكتمالاً في جماعة سياسية ما.[6] ونجدها في الموسوعة العربية العالمية على أنها: اصطلاح يشير إلى الانتماء إلى أمة أو وطن.[7] ويمكن تعريف المواطنة إجرائياً: بأنها شعور الفرد بالانتماء إلى جماعة اجتماعية لها ثقافة وتاريخ ومصير مشترك، ويُنَظم هذا الشعور

---

1)ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج13، الفيروز أبادي، القاموس المحيط.(1598)
2)عبد الرحمان الزنيدي، مبدأ المواطنة في المجتمع السعودي، مجلة المعرفة، العدد 120، افريل 2005، ص 9.
3)ساطع الحصري، آراء وأحاديث في الوطنية والقومية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1985، ص 9.
4)ينظر: علي فخرو، نحن وطنيون لكننا لسنا مواطنين، مجلة المعرفة، العدد 120، افريل 2005، ص 71.
5)ينظر: ساطع الحصري، آراء وأحاديث في الوطنية والقومية، مرجع سبق ذكره، ص 13.
6)ينظر: احمد صدقي الديجاني، مسلمون ومسيحيون في الحضارة العربية الإسلامية، مركز يافا للدراسات والأبحاث، القاهرة، 1999، ص 5.
7)ينظر: الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، 1966، ص311.

اجتماعياً وقانونياً وسياسياً، ويساهم الفرد من خلال هذا الانتماء بشكل فاعل في الحياة الاجتماعية.

بعيدا عن حقل الوجدان والمشاعر، يعرّف سامح فوزي المواطنة بأنها تمتُّع الشخص بحقوق وواجبات، وممارستها في بقعة جغرافية معيّنة، لها حدود محدّدة، تُعرَف في الوقت الراهن بالدولة القومية الحديثة التي تستند إلى حكم القانون. في دولة المواطنة جميع **"المواطنين متساوين في الحقوق والواجبات، لا تمييز بينهم بسبب الاختلاف في الدين أو النوع أو العرق أو الموقع الاجتماعي...الخ."**[1] أي مجموع القوانين التي تحفظ للمواطنين حقوقهم في ظل الدولة بمفهومها الحديث، وبعدها يلخص معنى المواطنة وتجليّاتها في أنها **"ليست منحة، بل نضال، المواطنة ليست هبة، بل مسؤولية. المواطنة ليست ثابتة بل مستمرّة."**[2] منتقلا من الانتماء الرسمي إلى التفعيل والشعور به وتجسّده في تصرفات المواطن.

المواطنة وحسب ما سبق، مزيج من انتماء فعلي وشعور نفسي بذلك؛ انتماء إلى رقعة جغرافية معيّنة، وإلى جماعة تُمثِّل وتكوِّن هذا الوطن، تجمعهم ثقافة، عادات، تاريخ ومصير مُشترك، يتمتّع المواطن في ظل هذا كلِّه بحقوق و واجبات تصون كرامته ماديا ومعنويًّا، مما يجعله يشعر بالفخر والاعتزاز لتأكيد وتمثيل هذا الانتماء مُستميتاً في الحفاظ والدفاع عنه.

· قد لا يكون هناك الكثير من المدوّنات التي عرّفت أو حدّدت هذا المصطلح ذلك لكَون معناه يُعتبر ربما من البديهيات، في غنى عن أي شرح أو تأكيد، وهو خاصة واضح ومعروف لدى كل فرد، لدى كل مواطن، الوطن ليس مجرد تاريخ وجغرافيا بل مُكوّن للذات ومُساهم عضوي في خلق الأنا والنحن، والواهب للمفاهيم التي ننظر بها إلى أنفسنا وإلى العالم.

---

1)سامح فوزي، المواطنة، مركز القاهرة لدراسة حقوق الانسان، ط1، 2008، ص 7.
2)المرجع نفسه، ص 8.

الوطن وما يمنحه من أمان مادي ومعنوي هو تقريبا المحور الرئيسي للصراع الدائر في الرواية، حيث يكتفي "أمين" بما يقدمه انتماؤه القانوني إلى دولة إسرائيل الوطن الذي اختاره وعقد العزم على الانتماء إليه **"منذ أيام الجامعة، أحاول أداء واجباتي كمواطن بأمانة."**[1] متبرئا من أي شعور أو عاطفة، إذ يكتفي بأداء واجباته في مقابل الحقوق التي يحضا بها.

موضحا مدى صعوبة تحقيق اندماجه نظرا للاختلافات القومية بين الفلسطينيين والإسرائيليين **"منذ سنتي الجامعية الأولى أدركت شراسة المسار الذي ينتظرني والجهود الجبارة التي عليا أن أبذلها لاستحق المواطنة الكاملة."**[2] تاركا وطنا خلفه نجده يعاني ليستحق المواطنة الإسرائيلية، تجدر الإشارة هنا إلى الانتماء السياسي لوطن والانتماء القومي لمجتمع يختلفان في كون الأول في حاجة إلى أوراق ثبوتية والثاني تجسده مشاعر بالانتماء وعواطف تربط بين الاثنين.

كانت تلك قناعة "أمين" قبل أن تأتيه رسالة زوجته "سهام" كالصاعقة لتؤكد إنها فعلا من قام بالعملية التفجيرية، إضافة إلى دافعها **"ما نفع السعادة إذا لم يتقاسمها المرء يا حبيبي أمين؟ أفراحي تخمد كلما كانت أفراحك لا تجاريها. كنت تريد أطفالا. كنت أريد أن استحقهم. ما من طفل بمأمن تماما بدون وطن...لا تنقم علي."**[3]

هو كان يريد أطفالا، وهي أرادت أن تكون أهلا لهذه المهمة الصعبة والمعقدة في آن، فمن حق الطفل عليها أن توفر له كل ضروريات وكماليات الحياة، ولكنها عاجزة باعتبارها نفسها لا تملك وطنا، فماذا ستقدم لهذا الطفل الذي سيولد شريدا وسينتهي به المطاف دون انتماء أو مفجرا نفسه كما يفعل أغلب أبناء فلسطين، كأنها اعتبرت

1)الرواية، ص 113.
2)المرجع نفسه، ص 114.
3)المرجع نفسه، ص 85.

بمن أنجبهم ثم ندم شفقة على المستقبل المشئوم الذي ينتظرهم كما قال سميح القاسم **"سامحني يا ولدي... فارحم روح أبيك ولا يكبر يا ولدي."**[1]

لكن أمين يحاول أن يجد مسئول عما فعلته زوجته، كأنها ما كانت لتجرؤ على تلك الفعلة الفظيعة، حيث لم تكتفي بتفجير نفسها إنما اختارت مطعم مليئ بالزبائن من بينهم أطفال **"ماذا قلتم لها لتتحول إلى وحش، إلى إرهابية، إلى أصولية انتحارية، هي التي كانت لا تتحمل سماع جرو كلب يئن؟"**[2] أي أنها ذات حس رهيف، فهو يجهل أنها بذلك ستكون أكثر قابلية للتضحية فان كانت لا تتحمل سماع جرو كلب يئن، فما بالك بأن تشهد معاناة شعب بأكمله.

"قالت إنها فلسطينية مئة في المائة، وأنها لا تفهم لماذا تدع الآخرين يفعلون ما يحتم الواجب عليها أن تقوم به"[3] فكأن الموت هو الإثبات القاطع على انتمائها انتماءها لهذا البلد، ذلك أن **"ما يمنح حياتك قيمة جوهرية هو ما تكون أنت مستعد أن تتخلى عنها من أجله."**[4]

الانتماء الوطني يسمو فوق كل أشكال الانتماءات الأخرى **"لسنا إسلاميين ولا أصوليين يا دكتور جعفري، إنما مجرد أبناء شعب منتهك ومضطهد يقاتلون بالوسائل المتاحة لاستعادة وطنهم وكرامتهم، لا أكثر ولا اقل."**[5] فهم لا ينضوون تحت أي لواء، ولا ينادون بأي شعار، ولا يبتغون أي مصلحة إلا استعادة وطنهم ومنه كرامتهم، وإن لم يملكوا العتاد إلا أنهم لا يدخرون كل الوسائل المتاحة ومنها أرواحهم. **"إننا نعيش في عالم يتناحر في كل يوم يمن الله علينا به، نمضي لياليا نلملم موتانا، ونقضي نهارنا ندفنهم. وطننا ينتهك انتهاكا أشبه بخبط عشواء**

---

1)حلمي التوني، الاعمال الكاملة لسميح القاسم، ج2، دار سعاد صباح الكويت، 1993، ص 536.
2)الرواية، ص 179.
3)المصدر نفسه، ص 255.
4)تيري ايجلتون، الإرهاب المقدس، ص 118.
5)الرواية، ص 182.

وأطفالنا نسوا ماذا تعني كلمة مدرسة"[1] الموت من بين الأحداث اليومية في فلسطين، وبينما الوطن منتهك الأطفال محرومون من ابسط حقوقهم.

كأن مفهوم الوطن لدى أمين يختلف عنه لدى المناضلين **" إذا كنت ترفض أن يكون لك وطن، فلا ترغم الآخرين أن يتخلوا عن وطنهم، أولئك الذين يطالبون به بملء حناجرهم يهبون حياتهم ليلا نهارا."**[2] فهو الذي رضي بالعقبات، وراهن على تجاوزها ليحضا بالجنسية الإسرائيلية، لا يستطيع أو يرفض أن يفهم أن أفراد شعبه عكسه لا يريدون غير هذا الوطن، وقناعتهم أنهم باستعادته سيستعيدون كل حقوقهم الضائعة، فالوطن أسمى من أن يقارن بحياة أبنائه أولئك الذين يهبونه حياتهم عن قناعة و برضا.

لكن أمين لا يستشعر القيمة المعنوية للوطن، والتي يتنافس أبناء قومه على التضحية بأنفسهم لأجلها **" كل مآسي البشر بسبب سوء التفاهم ذاك: ما يمنحك إياه الله، عليك أن تعرف كيف ترده. لا شيء على الأرض ملك لك حقا، لا الوطن الذي تتحدث عنه، ولا القبر الذي سيحيلك إلى تراب."**[3] معتبرا حب الوطن مجرد سوء تفاهم، فهم يبالغون في طلب امتلاك ما لا يعود إليهم في الواقع، فلا الوطن ملكية خاصة ولا حتى القبر الذي يعتبر المستقر الأخير.

رفضه تقبل الاعتبارات المعنوية للوطن، لم يمنعه من الاعتراف أن الفلسطينيين في الواقع محرومون مما كان على الوطن كهيئة أن يقدمه لهم **"كان قصر بصري يخفي عني جوهر المأساة التي تنهش بلدي"**[4] ذلك بعد أن شاهد بأم العين الحرمان واللا أمن الذي يعاني منه السكان إضافة إلى الإهانة والإذلال، كل هذا ليقر أخيرا أنه بلده هذا الذي ينزف.

---

1)الرواية، ص 184.
2)المصدر نفسه، ص 186.
3)المصدر نفسه، ص 185.
4)المصدر نفسه، ص 231.

كمثال عن معانات الفلسطينيين جسديا ومعنويا وذلك منذ أكثر من جيل، يصف عمه العجوز **"إصابته بجروح بليغة، وهو يذود عن القدس عام 1947. عرفته يعرج بسبب رصاصة استقرت في ركبته، ثم مقوس الظهر على عصاه اثر نوبة قلبية إصابته يوم شاهد الجرافات الإسرائيلية تدمر بساتين الجد لصالح مستوطنة يهودية"**[1] في إشارة إلى أن مأساة الوطن تمس مواطنيها بطريقة مباشرة، فعمه الذي أصيب دفاعا عن الوطن، وبعد أن أصبح عاجزا جسديا عن مواصلة الكفاح، نفسه لا تملك إلا أن تستجيب في شكل نوبة قلبية كردة فعل عما يعانيه.

يقوم قريبه "وسام" بعملية التفجيرية ضد حاجز تفتيش فيجتاح الجنود الإسرائيليين البستان بجرافاتهم لهدم البيت، فحاول أمين الاعتراض لكن ابنة عمه منعته، فذلك لا يجدي نفعا **"ما قيمة الدار حين تفقد الوطن."** [2] معتبرة أن خسارتهم الكبرى مازالت قائمة فلما الحزن على الجزئيات.

لكن أمين الذي ربما لم يعرف كيف يشعر بالانتماء إلى وطنه باعتباره عاش غريبا عنه يبقى لبيت طفولته أهمية بالغة في نفسه **"في اللحظة التي انهار جدار السور، جاش الغضب في داخلي، وانقضضت على الجرّافة. اعترض أحد الجنود سبيلي؛ دافعته وهاجمت الوحش الذي يدمر تاريخي."**[3] معتبرا البيت تاريخه الشخصي، وعملية تدميره أشعرته بالغضب هذا البيت الذي شيده جده الأكبر بيديه ورأت فيه النور أجيال عديدة **"كانت جرافة واحدة كافية لتحويل الأبدية بكاملها، في**

---

1)الرواية، ص 271.
2)المصدر نفسه، ص 284.
3)المصدر نفسه، ص 285.
4)المصدر نفسه، ص 285.

دقائق معدودة، إلى هباء."[4] بيت جده يعني الأبدية في نظره نظرا للأجيال التي رأت النور فيه لم يفكر أمين أن يراه يوما ينهار لطالما اعتقده خالد، وهو البيت التي قالت قريبته أنه لا يعني شيء أن يهدم حين لا تملك الأرض الذي شُيّد عليها، فهذه تكون نهايته في كل الأحوال.

المبحث الرابع:

القومية

عند الحديث عن القوميّة أو بالأحرى كلمة قوميّ أو قوميّة،عند وصف شخص ما بأنه ذو توجّه قومي، أو القول بأن بلد ما قامت بعمل ما من منطلق أو دافع قومي يكون وقع الكلمة على أسماعنا مقبولا بشكل لا يحتاج إلى أي توضيح، ولكن لو طُلِب منّا إعطاء تعريف لهذا المفهوم فسنجد أنفسنا في متاهات منهجيّة معقدة، وبالتالي صعوبة الخروج بمفهوم مُحدّد وشامل يُغطِّي فكرة ومعنى هذه الكلمة، وقد يكون من المستحيل التوصل إلى تعريف وجيز ودقيق؛ يتضمن في الآن ذاته كل ما تنطوي عليه فكرة القوميّة ويستثني كل ما هو خارج عنها.

يعود ذلك - ربما - لِكَون قوميّة كل أمة من الأمم تعبّر عن نفسها بشكل يُخالف الآخرين كما أنها تتغيّر وتتعدّل بمرور الزمن، فالقوميّات الأمريكية لا تشابه القوميات الأوربية والآسيوية مشابهة تامة، لاِختلاف الأصول التاريخية والظُّروف المادية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والجغرافية التي تدخّلت في تكوين كل أمة وفكرتها القوميّة.

لقد حاول الباحثون في جميع أنحاء العالم إيجاد مفهوم محدّد للقوميّة، يساعد ولو بدرجات بسيطة على تقديم تعريف مقبول على الأقل منهجياً وذلك لأغراض الدراسات السياسية، ولكنهم في النهاية اضطروا إلى وضع تعاريف خاصة بهم، ذلك أن الأغلبية الساحقة من الباحثين في القومية هم أيضا من دُعاة قوميَّة معيَّنَة سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، مُتأثّرين بطبيعة الحال بالقضيّة التي يدعون إليها؛ فجاءت مواطن التركيز في تعريفهم بما يتفق والظروف الموضوعية المُحيطة بهذه القضية، وبذلك لم يتحقق الوضوح اللازم إلا نادرا.

من التعريفات التي حاولت تحديد مفهوم القومية ذلك الذي اِتفق عليه كل من رينان وتريتشكه حيث يُنظَر إلى الأُمّة على اعتبار أنها كائن عضوي هيجلي، أي

عبارة عن روح أو مَبدأ روحي ينبعث من تاريخ الإنسان وطبيعته[1]. قد يدل هذا التعريف على رمزيّة خالصة مرفوضة موضوعيّاً إلا أن الأهمية التاريخية المعاصرة لهذا الرمز لا يمكن إغفالها، فالقوميون في كل مكان يعتبرون الأمة كائناً سامياً يعلو على الطبيعة، أو شيئا يسمو على الأفراد والمؤسسات التي يتألّف منها.

وحسب ساطع الحصري في كتابه "ما هي القومية" فإن تعريف الإيطالي"مانشيني" يُعتبر الأهم والأشهر لأنه حدّد سيمات القومية وعناصرها الأساسية **"مجتمع طبيعي من البشر يرتبط بعضه ببعض بوحدة الأرض والأصل، والعادات واللغة من جراء الاشتراك في الحياة وفي الشعور الاجتماعي."**[2]

أما بالنسبة للمفكرين العرب فقد حاول العديد منهم - وخصوصا دعاة القومية العربية - وضع مفهوم محدّد للقوميّة يتناسب مع الحالة العربية ومعطياتها، ومنها تعريف الدكتور جورج حنا للمصطلح على أنه **"عقد اجتماعي في شعب له لغة مشتركة، وجغرافية مشتركة، وتاريخ مشترك، ومصير مشترك، ومصلحة اقتصادية مادية مشتركة، وثقافة نفسية مشتركة، وهذا العقد يجب أن يكون فيه كل هذه المقومات مجتمعة."**[3] وهو ما يجعلنا نلتمس - خاصة في جملته الأخيرة- تلميحا إلى قومية عربية بحتة، حيث ركّز على عامل اللغة وتجاهل الدين؛ لأن هذا الأخير يجمع العرب والعجم على السواء.

وبدوره يعرفها الدكتور منيف الرزاز بأنها **"الرابطة التي تربط أبناء الأمة الواحدة في الوطن الواحد."**[4] وهو تعريف قريب من ذاك المقدم للقومية في الحقل السياسي **" يرتبط مفهوم القوميّة بمفهوم الأمة، من حيث الانتماء إلى أمة محدّدة. والأمة هي الشعب ذو الهويّة السياسية الخاصة الذي تجمع بين أفراده روابط موضوعية**

1)ينظر: بويد شيفر، القومية عرض و تحليل، تر: عدنان لحميري، مكتبة الحياة، بيروت، 1966، ص 70.
2)ساطع الحصري، ما هي القومية، دار العلم للملايين، بيروت، 1963، ص 40.
3) جورج حنا، معنى القومية، دار الثقافة، بيروت، ص70.
4) منيف الرزار، تطور معنى القومية، دار العلم للملايين، بيروت، 1960، ص 16.

وشعورية وروحية متعدّدة تختلف من شعب لآخر، مثل اللغة والعقيدة والمصلحة والتاريخ والحضارة..."[1] التعريف قد نجد فيه عدّة ثغرات، فمثلا ليس من الضرورة أن يجمع وطن واحد أبناء القومية الواحدة، ذلك ما تشهد عليه صراعات البلدان حديثا لضم أو انفصال أقليات قومية فالحدود السياسية والجغرافية غالبا ما كانت عاجزة أمام هذه الانتماءات الوجدانية.

تظهر القومية بالشكل الذي يريده القوميين لها، قد لا تكون فكرة خالصة ثابتة وإنما تجمُّعات متباينة من العقائد والظروف، لها أساليبها الخاصة في الاحتفاظ ببقائها وفي التحول لا إلى مجرد حقيقة، بل إلى أمر واقعي كذلك، والحقيقة أن الخيال والواقع والصواب والخطأ عناصر تختلط مع بعضها اختلاطاً شديداً في القومية الحديثة، ولذلك فإن الأسلوب الوحيد لإدراك فحوى القومية هو تحديد العقائد، بغض النظر عن صحتها أو عدم صحتها، والظروف المتوفرة فيها، كما يقول هيرتز **"القومية فكرة ترى وجود شخصية جماعية للدولة تتباين من حيث إيحائها والشعور بذاتها وكثافتها وضخامتها بالنسبة للدولة، فقد تمثل دولة متحدة منقرضة أو دولة متحدة قائمة، وقد تتجه نحو إقامة دولة متحدة في المستقبل وهي تعتمد في هذا كله على الخصائص الطبيعية الأصيلة التي تكوِّن شخصيتها وتبرِّر إدعائها."**[2]

وإذا كانت القومية في أوروبا والغرب ذريعة لأجل تحقيق مصالح سياسية واقتصادية إنْ للتحالف أو الاعتداء؛ فقد أصبحت في العالم الثالث **"ثورة من أجل الكرامة والنهضة الحضارية ومحركا تحرّريا وعاملا من عوامل مقاومة الاستعمار وحالة التخلّف والاستغلال التي خلفها في المستعمرات السابقة فالتّحد النضال القومي التحرري مع النضال الاجتماعي التقدمي، وفي الوطن العربي قامت القومية العربية ولا تزال بدور محرك فعّال ضد الهيمنة الامبريالية وضد الاحتلال الصهيوني وفي**

1) إسماعيل صبري مقلد، العلاقات الدولية، مطبوعات جامعة الكويت، 1971، ص 71.
2)بويد شيفر، القومية، ص 70.

تعبئة وتنظيم الجماهير الفقيرة من أجل المشاركة في صنع التاريخ والمستقبل لِما لها من جذور تاريخيّة عميقة ولأنها ارتبطت بنضال الجماهير من أجل التحرر من سيطرة الاستغلال والاضطهاد بكل أنواعه." [1]

ومن الناحية الأدبية نذكر تعريف "محمد الترنجي" للمصطلح حيث يعتبره **"التمسك بالموضوعات التي تهم الشعب الواحد وكل ما يقوله الأديب دفاعا عن أمته هو من الأدب القومي، والقومية دعوة إلى وحدة الصف. القومية في الأدب العربي تعني التحدث عن آمال العرب جميعا وعن آلامهم. والوطنية هي التحدث عن قطر من الأقطار العربية."[2]**

وعليه فالانتماء القومي لا يتعلق برغبة الفرد في الانتماء إلى جماعة أو دولة، إنما الإنسان يولد داخل الأمة والقوم.

2) عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ص 831.
3) محمد الترنجي، المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 717.

الرواية زاخرة بعبارات مباشرة وغير مباشرة، تعرض القوميتين العربية والإسرائيلية متنافرتين متصارعتين، حيث نجد الشخصية المحورية "أمين" مشتتة بين الاثنين؛ كونه الفلسطيني الذي اختار إسرائيل كوطن معتقدا أن حصوله على الجنسية سيكون حلا كافيا رغم العقبات التي واجهته **"كان من الصعب على شاب عربي أن يَنضم إلى أخوية النخبة الجامعية بدون أن يُثير الاشمئزاز"**[1] وهنا يظهر لنا تعصب زملائه الإسرائيليين ونفورهم منه في أبشع الصور، فمجرد كونه عربي يجعله مثيرا للاشمئزاز.

وهو ما يتجسد من جديد بعد تخرّجه وممارسته مهنة الطب، ففي حرم المستشفى يصرخ في وجهه إسرائيلي مصاب بعبارة ملؤها العنصرية والتعصب **" أُفضّل الموت على أن يلمسني عربي."**[2] ثم يواصل واصفا نفس المريض **"كان الجريح يحدجني بعينين حقودتين تكادان تنقلبان في محجريهما اشمئزازا."**[3] مستعملا نفس التعبير، ففي الجامعة كان يثير اشمئزاز زملائه وهاهو كطبيب يثير نفس الشعور لدى مريضه الإسرائيلي، وتجدر هنا الإشارة إلى كون الاشمئزاز مزيج من البغض والحقد والنفور في أقصى الدرجات.

وكنوع من التبرير عما دفعه لتحمل كل هذه الإهانات دون البقاء حيث ينتمي حقا يقول متذكرا جده **"كان جدي[...] يملك الأراضي لا الطموح، ويجهل أن طول العمر لا يرتبط بصلابة الإمساك بزمام الأمور إنما بالمراجعة المتواصلة لأشكال يقينه."**[4] في تحليله لمنطق جده غير الصائب، فقد كان فاقد الطموح، مخطئا في تعصبه وعدم مراجعة أشكال يقينه، مما جعل نهايته مأساوية ماديا ومعنويا فقد **"توفي**

---

1)الرواية، ص 13.
2)المصدر نفسه، ص 23.
3)المصدر نفسه، ص 24.
4)المصدر نفسه، ص 115.

مسلوبا من أراضيه [...] كسير الفؤاد من الذهول المهان."[1] بحيث تعتبر الأرض جزء من الانتماء القومي.

ثم وأثناء بحثه عما دفع بزوجته لتفجر نفسها وسط مطعم، التقى أمين بممثلين عن مختلف الجماعات المناضلة باسم القضية الفلسطينية منهم الشيخ مروان ذو تأثير ديني كبير بحيث أكد له هذا الأخير استهجانه لموقفه غير المتعاطف مع قومه، لائما إياه لتنصّله من انتمائه: **"لم تَنتهِج نهج أجدادك، ولا تَتمثل لمبادئهم، وإنك تخليتَ منذ وقت طويل عن قضيتهم إذ اِخترتَ جنسية أخرى."**[2] موضحا أنه باندماجه في مجتمع العدو قد ألغى تماما انتماءه السابق **"بين الاندماج والتفكك هامش المناورة ضيق للغاية."**[3]

وفي لقاء جمعه بقائد أحد الفرق العسكرية المناضلة، وبعد إلحاحه عن سبب تجنيدهم لزوجته وكيفية إرغامهم لها للقيام بذلك، أجابه القائد **"تُحدثني عن زوجتك، ولا تسمعني أحدثك عن وطنك. إذا كنت ترفض أن يكون لك وطن، فلا ترغم الآخرين أن يتخلوا عن وطنهم، أولئك الذين يُطالبون به بملء حناجرهم يَهِبون حياتهم ليلا نهارا. لا يقبلوا أن يموتوا وسط اِزدراء الآخرين و اِزدرائهم لأنفسهم، فإما الكرامة أو الموت، إما الحرية أو القبر، إما العزة أو المقبرة الجماعية. ولا حزن، لا حداد، سيُثنيهم عن القتال من أجل ما يعتبرونه، عن حق، جوهر الوجود، وهو الشرف."**[4] في إشارة إلى أن القضية التي يناضلون في سبيلها أكبر من حياة الأفراد، فالموت عندهم أفضل من العيش دون وطن، أو في وطن أسير مُجرَّد من العزة والكرامة، مؤمنين بموقفهم متعصبين لمعتقداتهم **"الأشخاص المرتبطون بعضهم ببعض في جماعات يكافحون حسب طبائع ومراكز الجماعات التي ينتمون إليها، ليغيروا العالم**

1)الرواية، ص 115.
2)المصدر نفسه، ص 172.
3)المصدر نفسه، ص 173.
4)المصدر نفسه، ص 186.

الطبيعي والاجتماعي المحيط بهم، أو ليبقوه في حالة معينة. إن اتجاه هذه الإرادة لتغيير الأحوال أو للمحافظة عليها، هو ذاته الخيط المرشد الذي تنبثق منه مشاكلهم و مفاهيمهم وأنماطهم الفكرية."[1] هم يقاتلون لأجل الشرف والذي بدونه لا معنى لوجودهم.

بعد كل هذه الشهادات، يراجع أمين نفسه، ويحاول تحديد موقعه من كل هذا **"لم يكن لديّ الوقت للاِهتمام بالصدمات النفسية التي تُقوِّض الدعوات إلى المُصالحة بين شعبين مختارين اِختارا أن يُحوِّلا أرض الله المباركة إلى ساحة رعب وغضب[...] اِعتبرتُ مَوقفهم جميعا مُنافيا للعقل ومؤسفا. لم أشعر بنفسي أبدا مَعنيًّا."**[2] في محاولة يائسة للإبقاء على حياده معتبرا أن موقف كلا الشعبين خالي من التعقل ومؤسفا فكونهما شعبين مختارين (في إشارة لاعتبار اليهود أنفسهم شعب الله المختار واعتبار العرب أنفسهم خير أمة أخرجت للناس) مما يوجب عليهما منطقيا الحفاظ على أرض الله المباركة بدل تحويلها إلى حلبة صراع وساحة رعب.

مواصلا رحلته في البحث عن الحقيقة، يقرر أمين التوغل أكثر في الجهة المعاكسة، لكنه هذه المرة يُصدم ما إن يجتاز الجدار الذي يفصل حاضره عن ماضيه **"كان قِصر بصري يُخفي عنِّي جوهر المأساة التي تنهش بلدي؛ والتكريم الذي أحظى به يُخفي حقيقة الفظائع التي تقوم بتحويل أرض الله المباركة إلى مكب لا مفر منه تتعفن فيه القيم الإنسانية التأسيسية[...] حيث طيف الأنبياء يُواري وجهه في كل صلاة تتلاشى وسط قعقعة أعقاب البنادق وصرخات التحذير."**[3] البلد الذي يقصده هنا محدد فقط من الناحية الجغرافية (أرض الله المباركة) لكن من الناحية القومية ما يزال مبهما؛ باعتباره طيف الأنبياء (لا نبي محدد) تتلاشى صلواتهم وسط قعقعة

1)كارل منهايم، الايديولوجيا واليوتوبيا، ص85.
2)الرواية، ص 191.
3)المصدر نفسه، ص 231.

أعقاب البنادق للجانب المعتدي وصرخات التحذير للجهة المقاومة، أي الصراع نفسه هو ما يقلق صلاة الأنبياء، بِغضّ النظر عن انتماءات المتصارعين.

استفسر أمين من أحد المقاومين المقربين من زوجته عن سبب إقدامها على وضع حد للحياة الجميلة التي كانت تحياها معه، ليجيبه **"لم تعد تُطيق أن تتمتع بأشعة الشمس فيما ينوء شعبُها تحت النير الصهيوني."**[1] كأدق وأبلغ إجابة، فقد قامت بتضحية نفسها في سبيل شعبها، بعدما أصبحت سعادتها عبئا فيما كان شعبها يعاني **"لم ترغب سهام بهذه السعادة [...] والأسلوب الوحيد للتنصل منه كان الإِنضمام لصفوف القضية. إنه المسار الطبيعي لمن تنتمي إلى شعب يُعاني. لا سعادة بلا كرامة، لا حلم ممكن بدون حرية...كانت تريد أن تستحق العيش، أن تستحق انعكاسها في المرآة، أن تستحق الضحك عاليا، لا أن تنتهز فرصها فقط."**[2]

كأن سعادتها كانت ذنبا في مقابل معاناة شعبها، فهي لم تحاول يوما نفي انتمائها الفلسطيني، أو الاختباء وراء اعتبارات أخرى، مما يجعلها تتقاسم معهم المعانات وتتشارك معهم مفاهيم السعادة والكرامة والحرية. وهو ما بدأ يتضح لأمين **" لابد أن سهام كانت تحمل حقدها في أعماقها على الدوام[...] ترعرعت قرب المُضطَهدين، يتيمة وعربية في عالم لا يغفر لهذه ولا لتلك[...] لأن إِنتهى بها المطاف لأن تتحزم بالمتفجرات، وتمضي إلى حتفها بعزم لا يلين، فلأنها كانت تحمل في أعماقها جرحا تخجل من البوح به لشدة بشاعته وفظاعته."**[3] فالانتماء القومي إن كان مكتسب بالولادة، إلا أن الظروف الاجتماعية المحيطة هي من ينميه ويغذيه لتجعل منه هشا سطحيا أو عميقا قويا.

---

1)الرواية، ص 245.
2)المصدر نفسه، ص 262.
3)المصدر نفسه، ص 263.

تَقبّل أخيرا وإن لم يستوعب تماما كيف أن كلاّ من هؤلاء مسئول عن تصرّفه الذي تبنّاه عن وعي وقناعة، فقد كان طيلة رحلته هذه يبحث عن مُذنب ليلومه على ما آلت إليه زوجته لكنه في النهاية خلص إلى أن كل المنتحرين وراءهم عائلة تبكيهم، إلا أن لا أحد يستطيع أن يثنيهم عن عزمهم ذلك أن ما يؤمنون به ويضحون لأجله في نظرهم يفوق فرديتهم وأسرتهم ذللك أن **"الناس مستعدون للموت من أجل الأمة. فالقومية هي أثر متبقّ مما هو جليل و سامِ."**[1]

فها هو ينتقل من ألم إلى أخر حين تعرف على قريب له **"وسام! عرفته زاعقا في قماطه بالكاد أكبر من قبضة اليد، وها هو أطول مني بالقامة، وقد طرّ شاربه. وقد أصبح قاب قوسين من اللّحد[...] أشعر بقلبي ينفطر وأنا ألمح المسدس المتواري تحت حزامه ."**[2] في إشارة لكون هذا المراهق قد حدد وجهته وهدفه في الحياة، كأنهم يقررون ذلك قبل بلوغهم سن تسمح لهم بأخذ قرار صائب.

يتجلى موقفه من كل هذا في حواره مع عجوز يهودي اختار العيش في الجهة الأخرى للجدار؛ إلى الجانب الفلسطيني، كان يشاركه القلق والمعانات عما آل إليه البلد والشعبين فأخبره أمين أن الحل في **" أن نُفرج عن الله، بعد كل هذا الوقت الذي كان فيه رهينة تزمتنا وتعصبنا."**[3] باعتبار أن كِلا الطرفين يعتبر نفسه محاربا باسم الله الذي فوّضه ليسكن هذه الأرض، وحسب ادوارد سعيد فنحن **" مغرقون بالدين، إلا أننا لا نرى منه سوى زاوية صغيرة جدا، ولا يهمنا منه سوى جزء ضئيل. ياله من مصير لفلسطين: فقد جذب الخيال الديني ودراما نهاية العالم، لا مرة واحدة فقط، بل ثلاث مرات: اليهودية والمسيحية والإسلام[...] حتى ينكشف مرجل يغلي بالخرافات**

---

1)تيري ايجلتون، الإرهاب المقدس، ص 120.
2)الرواية، ص 266.
3)المصدر نفسه، ص 279.
4)وليام هارت، ادوارد سعيد و المؤشرات الدينية للثقافة، تر: قصي أنور الذبيان، هيئة أبو ظبي للثقافة و التراث، ط1، 2011، ص 89.

الفظيعة، يغلي بالعديد من الأعمال الوحشية، وأنهار من الدم، وعدد لا يحصى من الجثث."[4] ذلك أن القومية تقبع خلف هذا التصارع والتضحية بحياة الأفراد، معتبرا أن إله القومية إله دائم الفشل **"ومثل كل الآلهة، توجب إطعامه، ولقد فضل هذا الإله كغيره الدم البشري."**[1] معتبرا أن **"الله والدين والمشاكل بشكل عام، ما هي إلا قضايا تخضع لنسبية الاعتقاد."**[2] أي أن التعصب للمعتقدات هو عين المشكل بغض النظر المفاهيم نفسها.

ومن الحماقة أن يستهين الإنسان بحياته بينما هي أسمى ما يملكه **"الحقيقة واحدة، وعليه يجب أن يكون التحرك واحد[...] وهذا لن يتم إلا إذا فتحنا باب الحوار[...] فلنترك الصراعات الجانبية، ولنشرع أبواب القلوب [...] لنحل مغاليق العقول"** [3] فهما تعددت العقائد وهي سنة البشرية إلا أن التعصب يبقى الدافع إلى كوارث إنسانية وخيمة شهد بها التاريخ ولم يعتبر بها أحد.

.

1)وليام هارت، ادوارد سعيد والمؤشرات الدينية للثقافة، ص89.
2)المرجع نفسه، ص 71.
3)محمد ناصر صلاح، ملامح العصر، وزارة الثقافة، عمان- الأردن، ط1، 2001، ص120.

المبحث الخامس:

الإنسانية

الإنسانية مصطلح كثير التداول، وغالبا ما نجده مرتبط بكوارث أو أزمات، وهو صفة لمنظمات محليّة أو عالميّة غير حكوميّة عموما (كالهلال والصليب الأحمر) حيث تكون أهدافها الرئيسية تعاونية أكثر من كونها تجارية، وتسعى بصورة عامة إلى تخفيف المعاناة وتعزيز مصالح الفقراء والفئات المستضعفة الأخرى[1] إذ أن العمل الإنساني لا يعترف بالقيود السياسية ولا الحدود الجغرافية أو الفوارق الجنسية والعرقيّة أو الدينية.

يعرّفها جبور عبد النور في معجمه الأدبي على أنها: **"مجموع الطبائع المشتركة بين الناس، طبائع تجعل الإنسان متميزا عن الحيوان. ويُعتَبر درس الآداب أو الاشتغال بالفنون مغذيًّا لهذه الطبائع ومُنَمِّيا لها.طيبة خُلقية مُعبّر عنها. بمختلف أساليب القول والعمل والمواقف من الآخرين."**[2] وقد يكون اعتباره دراسة الأدب والاشتغال بالفنون تغذية للطبائع الإنسانية لِشدّة ما يُعرف عن الفنانين والأدباء من رهافة في الحس ورقة في الشعور.

وفي معجم مصطلحات عصر العولمة نجد تركيز على تجلّي المفهوم في الجانب الدولي وقد جاء في صيغة "إنسانوية" مُعرَّفة على أنها **"تعبير عن الصفة الإنسانية في كافة الأحداث العالمية، وبصفة خاصة الشق الإنساني في المساعدات الدولية، وهو يعني الاهتمام بالبعد الإنساني في العلاقات الدولية."**[3] ذلك أن الأزمات الإنسانية في العصر الحديث أصبحت دولية الأسباب والنتائج.

أهمية الإنسانية إذن لا تكمن في البريق الذي يحمله معناها المجرّد، إنما حين تتجسد في العلاقات بين الأفراد، والتي يعرفها منصور فهمي، بأنها **"النّتاج العام للموقف الاجتماعي الذي يوجد فيه الفرد مع جماعة من الناس."**[4] أي أنها تَجسُّد لمواقف الجماعات والتي يتحمّلها كل فرد مُنتمي لهذه الجماعة.

---

1))ينظر: دليل الممارسات السلمية بشان وضع القوانين المتعلقة بالمنضمات غير الحكومية، مسودة مناقشة، أعدها البنك الدولي، المركز الدولي لقوانين الهيآت التي لا تستهدف الربح، بحث رقم 26أ، مايو 1997، سلسلة بحوث التنمية الاجتماعية.

2)جبور عبد النور، المعجم الأدبي، مصدر سبق ذكره، ص 37.

3)إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي، معجم مصطلحات العولمة، مصدر سبق ذكره، ص 72.

4)فهمي منصور، إدارة الأفراد و العلاقات الإنسانية، دار النهضة مصر، ص 236.

من الواضح أن الإنسانية مصطلح في غنًى عن اختصاصيّ لتعريفه، ذلك أن معناه الجوهري لا يختلف فيه اثنان، من طيبة في التعامل وشفافية في الاحتكام إلى الضمير عند الحكم، وحسن التصرّف حيال الأزمات الإنسانية بغض النّظر عن الفوارق والحواجز الاجتماعية منها والسياسية.

في الرواية نكتشف الوضع اللا إنساني -في فلسطين- بجوانبه المختلفة نتيجة الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي، حيث يشير أمين أن العملية التفجيرية التي هزت تل أبيب، وإن كانت لا تعد جديدة على المدينة، إلا أنها **"تبقى عملية تفجيرية. يمكن إدارتها استنزافا من الناحية التقنية إنما ليس من الناحية الإنسانية."**[1] فحتى إن كانت الاستعدادات في تأقلم متواصل لاحتواء مثل هذه الكوارث إلا أن وقعها على النفوس لا يمكن التحكم فيه.

يوضح حياده، رغم أنه ينتمي لأرض تتعذب منذ أزمنة إلا أنه لم ينجرف يوما خلف أسباب ودواعي الحرب **" وبينما كان عودي يشبّ على أرض معذبة منذ أزمنة سحيقة، رفضت اعتبار العالم حلبة مصارعة[...] كنت أرى الحروب تتعاقب وأعمال الثأر والانتقام تتوالى، ولكنى كنت أحجم عن ضمانتها بطريقة أو بأخرى. لم أؤمن بنبوءات الخصومة، ولم أفلح في تقبل قدرة الله على تأليب عباده بعضهم على بعضهم الآخر، واختزال ممارسة الإيمان إلى مسالة موازين قوى سخيفة ومروعة."**[2] مستنكرا العامل الديني في صراعات البشر معتبرا أن البشر أساءوا تأويل الرسالات السماوية. يضيف **"لطالما شعرت بنفور فضيع من الدبابات والقنابل، إذ لم أعتبرها سوى أكثر الأشكال اكتمالا لأسوء ما في الجنس البشري [...] أمقت الحروب والثورات، وقصص أعمال العنف الخلاصية التي تدور حول نفسها كبراغي بلا نهاية، جارفة أجيالا بحالها عبر العبثيات القاتلة نفسها بدون أن يحدث ذلك صحوة في الأذهان"**[3] مبينا نفوره من الأسلحة، وأنها تجسد الجانب الشرير في الإنسان. وكذا دور الحروب الخالي من نتائج غير تلك المدمرة للجنس البشري.

يرى أن القادة هم من يدفع بالأفراد إلى حتفهم **"لقد اخترتَ قتل الناس، وأنا اخترت إنقاذ حياتهم. عدوك هو مريضي. لست أنانيا ولامباليا، ولدي من عزة النفس بقدر ما لدى أي كان. أريد فقط أن أعيش نصيبي من العيش بدون الاضطرار للتعدي على نصيب**

---

1)رواية الصدمة، ص 21.
2)رواية الصدمة، ص 116.
3)رواية الصدمة، ص 192.

الآخرين."[1] فلسفته لا تمجّد القيم المعنوية التي يموت لأجلها شعبه، يريد أن ينعم بالجانب المادي للحياة، فبغض النظر عن الدوافع والأهداف؛ يدين القتل في كل أشكاله، معتبرا أنه يهدف لحياة لا تخلو من العزة لكن دون المساس بالغير، في تعبير عن الحياد المطلق **"عدوك هو مريضي"** نافيا عنه صفة الانتماء لأي طرف، مكتفيا بأداء واجبه المهني بكل أمانه **"لأن المعركة الوحيدة التي أؤمن بها، والتي تستحق حقا أن تنزف من أجلها، هي معركة الجراح الذي أكون، والتي تقوم على إعادة إبداع الحياة حيث إختار الموت أن يتدخل."**[2] حيث يؤكد وجهة نظره المهنية، التي تملي عليه إنقاذ حياة الأفراد بغض النظر عن الجنسية أو العرق، أو الانتماءات.

لكن المناضلين لهم منطقهم، فتضحيتهم وراءها معاناة تبررها **"وطننا ينتهك انتهاكا أشبه بخبط عشواء، وأطفالنا نسوا ماذا تعني كلمة مدرسة"**[3] لأجل الوطن، والشعب المضطهد، والأطفال المحرومين من أبسط حق وهو التعليم.

في محاولة أحد القادة في جعل أمين - الذي تعود حياة رغدة - يذوق المرارة ليفهم سبب نضال شعبه **" لا سبب لديك لتضمر الشر للبشر. لذا، كان من الشاق عليا إفهامك ذلك بدون أن أقصيك من مرتبك الاجتماعية، وأمرغك في الوحل[...] لقد علمتني الحياة [...] ليس بوسعه (المرء) أن يكتب له البقاء في الذل والهوان. وأنا لم أعرف سواهما منذ أبصرت النور، كل صباح و كل مساء. لم أشهد غير ذلك طوال حياتي."**[4] فالمكانة الاجتماعية لها دورها في توجيه تصرفات الإنسان، فمن غير الممكن أن تحاول الهروب إلى الأمام حين تكون محاصرا بالذل والهوان **"أردت أن تفهم لماذا نحارب يا دكتور جعفري، لماذا يرتمي الأطفال على الذبابات كأنهم يرتمون على علب الملبس[...] لماذا ذهبت زوجتك لتفجر نفسها في مطعم. لا كارثة أكبر من المهانة. أنها مأساة غير قابلة للقياس يا دكتور،تحرمك من رغبة العيش. وما دام موتك مؤجلا، فثمة فكرة واحدة تقض مضجعك: كيف تموت بكرامة بعد أن عشت بائسا، أعمى، وعاريا؟ "**[5] فإن أخطأتهم للحظة

---

1) رواية الصدمة، ص 185.
2)رواية الصدمة، ص 269.
3)رواية الصدمة، ص 184.
4)رواية الصدمة، ص 251.
5)رواية الصدمة، ص 252.

الموت المباشرة، فمرارة الحياة في كل وقت تذكرهم أنهم بلا حقوق، بلا حماية، بلا سند، بلا كرامة، ولا يملكون الشرف إلا في اختيار موتهم قبل أن يُجبروا عليه.

أثناء عبوره إلى الجانب الآخر من الجدار حيث الواقع الذي يعيشه الشعب الفلسطيني، استطاع أن يرى أن حياده لم يكن مبني على واقع حياة الطرفين **"البلديات المحاصرة، نقاط التفتيش عند كل طريق فرعية، الطرقات التي تنتشر فيها السيارات المحروقة [...] جحافل المستضعفين الذين ينتظرون دورهم على حواجز التفتيش، ويتعرضون للإهانة، وغالبا ما يُمنعون من المرور؛ جنود لم يطر شاربهم ينفذ صبرهم فيسددون الضربات عشوائيا؛ نساء يعترضن لا تحميهن من ضربات الهروات سوى أياديهن المكلومة؛."**[1] في تعبير عن الحالة الإنسانية المزرية التي يعيش فيها سكان المنطقة، من إذلال ولا أمن، ليؤكد له ابن عمه **" في جنين فتحت الدبابات النار على أطفال يقذفونهم بالحجارة"**[2] وهنا تجدر الإشارة إلى أن فلسطين البلد الوحيد في العالم أين لا تُؤخذ طفولة الأطفال بعين الاعتبار، وحيث لا كلمة تقولها كل منظمات الدفاع عن حقوق الطفل أو المرأة أو الإنسان بشكل عام.

يراجع أمين نفسه بعد ما شاهده **"كنت أعرف العداوات التي تشوه الذهنيات من هذه الجهة وتلك، والتفتت الذي يظهره المتناحرون الذين يرفضون الحوار ولا يصغون إلا لضغينتهم القاتلة؛ ولكن مشاهدة ما لا يطاق بأم العين يصدمني. في تل أبيب كنت أعيش على كوكب آخر"**[3] فبغض النظر عن المشاكل السياسية والعداوة الإيديولوجية، كان من الواجب الإبقاء على ذرة من الإنسانية في التعامل مع الشعب الأعزل على الأكثر، بحث يعتبر أمين أنه في تل أبيب يعيش على كوكب آخر وإن كان الفاصل فقط جدار وحواجز أمنية.

في عرض لمختلف أنواع المرارات التي تنهش النفوس، الجد الذي عاصر محرقة اليهود، وحفيدته التي تشهد على التفجيرات المتتالية المستهدفة لكل اليهود، و أمين الذي كان يعتقد أنه يحيى في هدوء و سلام ليفاجَئ بتفجير زوجته لنفسها، جلسوا معا يتأملون شروق

---

1)رواية الصدمة، ص 230.
2)رواية الصدمة، ص 231.
3)رواية الصدمة، ص 231.

الشمس في حالة معنوية سيئة كل منهم يجتر همومه في صمت **"تأملنا، نحن الثلاثة، غارقين في صمتنا، الأفق الذي أضرم فيه الفجر ألف حريق، ويقيننا أن النهار الذي يشرق، ولا النهارات التي سبقته، بوسعها إشاعة ما يكفي من النور في قلوب البشر"**[1] كأنهم يلومون البشر جميعا لأنهم أغلقوا على قلوبهم في العتمة معتبرين مأساتهم إنما من هناك منبعها، في إشارة إلى كوارث الزمن الماضي التي لم تعتبر بها الإنسانية.

ثم يعرج على القدس معقل الصراع وأحد أسبابه الرئيسية، معتبرا أنها ترفض الانحياز لأحد أبنائها باعتبارها مهد كل الديانات فهي بذلك لا تنكر أحد منهم لكنها كذلك لا تعد ملك شخصي لأحد الأطراف **"تشعر القدس، الممزقة بين انتشاء المحظية وعفاف القديسة، بالظمأ للنشوة والعشاق لا تتحمل جلبة أبنائها، راجية ا نياتي الانفراج لتحرير العقول من عذابها المظلم رغم كل الأنواء والشدائد. تبعا سماءً ومعزلا، سيدة وعشيقة، معبدا وحلبة، أنها تعاني بسبب عجزها عن الهام الشعراء بدون أن تجمح الأهواء، فتتقشر، حسب الأمزجة مثلما تتفتت صلواتها وسط تجديف المدافع..."**[2] فهي ككل أم تتعذب حين ترى أولادها يتناحرون وليس في مقدورها إلا الصلاة لأجلهم، وإن كان تجديف المدافع يمنعها من الخشوع.

ثم وفي إشارة إلى أن إمكانية التعايش ليست مستحيلة بين القومين، لو الذهنيات خالية من التعصب، ما يجسده أمين ويهودي عجوز فضل الاستقرار خارج حدود الجدار العازل، بعد أن تلا على "أمين" بعض الآيات من سفر أشيعا أضاف **" كل يهودي من فلسطين هو عربي بعض الشيء، وما من عربي من عرب إسرائيل يستطيع الادعاء انه ليس يهوديا بعض الشيء "**[3] فيكفي التفتح على للآخر للاندماج والتواصل معه، رغم الاختلافات العقائدية؛ وهو رأي يشاركه إياه اليهودي **"أوافقك الرأي تماما. فلماذا كل هذا الحقد وأواصر القربى هي نفسها؟"**[4] معبرا عن تعجبه من الحقد المتبادل بين الفلسطينيين والإسرائيليين، رغم أن كلا منهم أثر وتأثر بالآخر، مما أنتج أواصر قربى لا يمكن نكرانها.

---

1)رواية الصدمة، ص 97.
2)رواية الصدمة، ص 164.
3)رواية الصدمة، ص 278.
4)رواية الصدمة، ص 278.

وعن سبب كل هذه الأحقاد يضيف **"لأننا لم نفهم شيء من النبوءات و ابسط قواعد الحياة"**[1] في إشارة إلى أن كلا الشعبين يتناحران باسم الدين أولا، ناسين أن رسالات الأنبياء دائما ما تدعوا إلى السلام، بالإضافة إلى جهلهم بأبسط قواعد الحياة والتي تتمثل في التأقلم والتكيف من أجل النجاة والبقاء.

وتأكيدا على ما سبق يضيف العجوز اليهودي **"حياة البشر أهم بكثير من تضحية، مهما كانت سامية. فأعظم القضايا وأكثرها عدلا ونبلا على الأرض هي حق الحياة"**[2] حياة البشر أسمى من أي تضحية على وجه الأرض، في إشارة إلى كون مختلف القضايا التي يتناحر الناس لأجلها لا قيمة لها أمام حياتهم لو كانوا يعقلون.

وفي صورة مجسدة للتعايش والوئام أو على الأقل إمكانية تحقيقهما انطلاقا من هذا النموذج المصغر **"تناقشنا ساعات بحالها على قمة التلة، جالسين على حصوة ضخمة، نولي ظهرنا للجدار، ونلتفت بعناد إلى البساتين القليلة الباقية على أرض العشيرة"**[3] في إشارة إلى هروبهم من الواقع، فالجدار قائم حتى أن أولوا ظهرهم له، مما يحيلنا لاعتبار تحليلهم السابق مقبولا من الناحية النظرية، ولكنه صعب التطبيق في الواقع، مع الأخذ بعين الاعتبار أن حياة البشر هي أسمى ما في الوجود ولكن ليس في مفهومها الجرد، فكيف للفرد أن يتشبث بالحياة حين يفقد كل ما فيها من مميزات.

---

1)رواية الصدمة، ص 278.
2)رواية الصدمة، ص 282.
3)رواية الصدمة، ص 282.

خاتمة

تدخلنا رواية "الصدمة" في عدة متاهات، قد لا يسهل على المتلقي الخروج منها أو تقبلها، ذلك أن صاحبها اختار مكانا تقدسه الديانات السماوية الثلاث، ليصف لنا صراعا يتم على عدة مستويات، حيث يصعب على المرء أن يحافظ على حياده.

بعد دراستنا للرواية توصلنا إلي أن:

- الصراع الحضاري يتجاوز إيديولوجيات الأفراد وفرديتهم.
- مهما كان التغيير المنشود فليس من السهل على الفرد التخلي عن انتمائه وهويته.
- الاختلافات العقائدية تغذي الصراع وتعمقه.
- الانتماءات القومية تزيد من حدة التعصب.
- الوطن يقع ضمن الأسباب الرئيسية الدافعة بالأفراد نحو الموت.
- منفذي العمليات الانتحارية لسوا دائما ضحايا الظروف، بل أحيانا مشاريع قومية و/أو إيديولوجية و/أو عسكرية.
- الأوضاع الإنسانية هي آخر هم المتصارعين، والضحايا قد يبدون مذنبين إذا ما غيرنا زاوية النظر.

يحتفظ الموضوع بجانب من الغموض لاعتباره محاكاة للواقع، هذا الأخير الذي يصعب حتى على المتخصصين تبسيطه، ذلك أن الصراع في هذه المنطقة ليس فقط صراع أرض بل ما تحمله هذه الأرض من دلالة، إضافة إلى الاختلافات السياسية والهوياتية والإيديولوجية والقومية والدينية والعقائدية... الخ.

قائمة المصادر والمراجع:

★المصادر:

- ياسمينة خضرا، **الصدمة**، تر: نهلة بيضون، دار الفارابي – بيروت لبنان،ط1، 2007.

★المراجع:

1 – باللغة العربية:

- ابن خلدون عبد الرحمان، **المقدمة**، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة.

- برغوث عبد العزيز، **الشهود الحضاري للأمة الوسط**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط1، 2007.

- التوني حلمي، **الأعمال الكاملة لسميح القاسم ج2**، دار سعاد صباح، الكويت، 1993.

- الحصري ساطع، **أراء وأحاديث في الوطنية والقومية**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، ط2، 1985.

- الحصري ساطع، **ما هي القومية**، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، 1963.

- حنا جورج، **معنى القومية العربية**، دار الثقافة بيروت - لبنان، دط، دت.

- الديجاني احمد صدقي، **مسلمون ومسيحيون في الحضارة العربية الإسلامية**، مركز يافا للدراسات والأبحاث، القاهرة، 1999.

- الرزاز منيف، **تطور معنى القومية**، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان،1960.

- سامح فوزي، **المواطنة**، مركز القاهرة لدراسة حقوق الإنسان، ط1، 2008.

- صلاح محمد ناصر، **ملامح العصر**، وزارة الثقافة، عمان الأردن، ط1، 2001.

- العروي عبد الله، **مفهوم الايديولوجيا**، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط5،1993.

- مقلد إسماعيل صبري، **العلاقات الدولية**، مطبوعات جامعة الكويت، 1971.

- منصور فهمي، **إدارة الأفراد والعلاقات الإنسانية**، دت، دط.

ب – المراجع المترجمة:

- اجلتون تيري، **الإرهاب المقدس**، تر: أسامة اسبر، بدايات للطباعة، سوريا، ط1، 2007.

- ديورانت. و، **قصة الحضارة**، تر: محمد بردان، ج1، المنظمة العربية للتربية والثقافة والفنون، تونس، دت.

- دوبار كلود، **أزمة الهويات**، تر: رندة بعث، المكتبة الشرقية بيروت - لبنان، ط1، 2008.

- شيفر بويد، **القومية عرض وتحليل**، تر: عدنان لحميري، مكتبة الحياة بيروت لبنان،1966.

- غيرتز كليفورد، **تأويل الثقافات**، تر: محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت لبنان، ط1، 2009.

- مانديلا نلسون، **رحلتي الطويلة من أجل الحرية**، تر: عاشور الشامس، جمعية نشر اللغة العربية، مصر، ط1، 1994.

- منهايم كارل، **الايديولوجيا واليوتوبيا**، تر: محمد رجا عبد الرحمان الديرني، المكتبات الكويتية، ط1، 1980.

- هارت وليام، **ادوارد سعيد والمؤشرات الدينية للثقافة**، تر: قصي أنور الذبيان، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ط1، 2011.

- هنتنجتون صامويل، **صدام الحضارات**، تر: طلعت الشايب، سطور- القاهرة، ط2، 1999.

- المجلات:

- الزنيدي عبد الرحمان، مبدأ المواطنة في المجتمع السعودي، **مجلة المعرفة**، العدد 120، افريل 2005.

- فخرو علي، نحن وطنيون لكننا لسنا مواطنين، **مجلة المعرفة**، العدد 120، افريل 2005.

- مسودة مناقشة، أعدها البنك الدولي، المركز الدولي لقوانين الهيْآت التي لا تستهدف الربح، **سلسلة بحوث التنمية الاجتماعية**، بحث رقم:26، مايو 1997.

- المعاجم والموسوعات:

- أبادي الفيروز، **قاموس المحيط**.

- بينيت.ط، غروس بيرغ.ل، موريس.م، **مفاتيح اصطلاحية جديدة**، تر: سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت – لبنان.

- الترنجي محمد، **المعجم المفصل في الأدب**، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

- عبد الكافي إسماعيل عبد الفتاح، **معجم مصطلحات عصر العولمة**، موقع كتب عربية الالكتروني.

- شارودو باتريك، دومينيك منغو، **معجم تحليل الخطاب**، تر: عبد القادر لمهيري، حمادي صمود، دار سينلترا، تونس، 2008.

- عبد النور جبور، **المعجم الأدبي**، دار العلم للملايين، ط2، 1984، بيروت - لبنان.

- عناني محمد، **معجم المصطلحات الأدبية الحديثة**، لونجمان العالمية للنشر، مصر، ط3، 2002.

- الكيالي عبد الوهاب، **موسوعة السياسة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مصر.

- ابن منظور، **لسان العرب**، ج13.

- المراجع باللغة الفرنسية:

- Garaudy (roger), intégrisme , Belfond, Paris, 1990 .